مظاهر القدرة والملك وآثارها الإيمانية في ضوء سورة الملك

د. نواف بن معيض الحارثي
الأستاذ المساعد بقسم القراءات
كلية الدعوة وأصول الدين – جامعة أم القرى

ملخص البحث

يتناول البحث سورة الملك بالتحليل والدراسة الموضوعية لمحورها الأساس من إثبات حقيقة الملك المطلق لله تعالى، وحقيقة قدرته جلَّ وعلا.

كما تناول البحث ذكر اسم السورة وفضائلها، ودلالة الاسم على المضمون، ومناسبة السورة لما قبلها وما بعدها...

وركز البحث على إظهار وإبراز كل ما في السورة من مظاهر القدرة والملك لله تعالى وربط كل هذه المظاهر بالمحور الأساس للسورة، وجعلت هذه المظاهر في مباحث ومطالب متجنباً التفصيل في المفردات والمسائل النحوية والقراءات، متمماً البحث ببيان الآثار الإيمانية لهذه المظاهر.

والحمد لله رب العالمين،،،

* * *

المقدمة

الحمد لله الذي تفرد بالخلق والملك والتدبير، القائل سبحانه: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [فصلت: ٥٣]، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله، أعرف الناس بربه، وأتقاهم له، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد:

فإن المتدبر للقرآن الكريم يجده وحدة واحدة في مقصده، فهو كتاب هداية للناس أجمعين، وكل سوره وآياته تصب في هذا المقصد العام، ومع أن كل سورة لها محورها وموضوعها الخاص بها، لكنك إذا تأملت ذلك وجدت محور السورة وموضوعها الخاص يصب في المحور العام للقرآن الكريم.

ولاشك أن دراسة السورة القرآنية كوحدة موضوعية واحدة له أهمية كبيرة في إبراز محور السورة، وبيان أن الآيات تتناسب وتتماسك وتترابط فيما بينها حول محور السورة.

وهذا المحور للسورة يحتاج إلى تأمل وتفكر، كما أن ترابط الآيات فيما بينها قد تخفى في علاقتها بمحور السورة، لكن بالتأمل والنظر يظهر لك الأمر جلياً، لتخرج بقناعة تامة أن القرآن كلام الله ربِّ العالمين وما أنزله إلا هداية للناس، وليدلهم على طريق الهداية والنجاة، والمتدبر لسور القرآن الحكيم يلمس هذه الخصيصة القرآنية بجلاء.

وفي هذا البحث وقفت مع سورة عظيمة من سور القرآن المكية التي تعنى بغرس العقيدة وإقامة دلائل التوحيد لله ربّ العالمين، مع ما فيها من

مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى، وبيان أنه المستحق للعبادة دون ما سواه جلَّ وعلا، إضافة لما لها من فضائل مشهودة معروفة تميزت بها دون غيرها،، إنها سورة (الملك).

ولما كان توحيد الربوبية يعني: " الإقرار بأن الله ربّ كلّ شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وأنه المحيي المميت، الضار النافع، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، القادر على ما يشاء، ليس له في ذلك شريك "[1]، وكانت هذه السورة مفعمة بمظاهر هذا القسم من أقسام التوحيد جعلت عنوان البحث: **(مظاهر القدرة والملك وآثارها الإيمانية في ضوء سورة الملك-دراسة موضوعية)**.

* أسباب اختيار البحث:

مما دعاني لدراسة هذا الموضوع بهذه السورة ما يأتي:

١. كثرة مظاهر القدرة والملك التي اشتملت عليها السورة الكريمة.
٢. تعلق الموضوع بتوحيد الربوبية، وهو من أهم مضامين الإيمان بالله تعالى، ومستلزم لتوحيد الألوهية.
٣. عدم وجود دراسة موضوعية سابقة تناولت هذا الموضوع حسب اطلاعي المتواضع.

* أهداف البحث:

يروم هذا البحث تحقيق الأهداف الآتية:

١. جمع مظاهر القدرة والملك الواردة في سورة الملك وإبرازها.

(١) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد: (٣٣).

٢. تحديد أقوال المفسرين في كل مظهر، وبيان مدلولاته.
٣. الإسهام في تأصل التفسير الموضوعي للسور القرآنية.
٤. الدعوة إلى تعميق الإيمان بالله تعالى.
٥. بيان الآثار الإيمانية لمظاهر التوحيد من خلال آيات ومقاطع هذه السورة.

* منهج البحث:

سرت في هذا البحث وفق المنهج الاستقرائي والاستنباطي التحليلي، حيث قمت بتتبع آيات السورة المباركة واستنباط المظاهر منها، واستخراج الآثار الإيمانية.

* الدراسات السابقة:

لم أجد بعد البحث حسب اطلاعي المتواضع رسالة أو بحثاً علمياً تناول هذا الموضوع من هذه الحيثية، ولذا فإن هذا البحث سيفتح الباب – إن شاء الله تعالى – أمام هذا النوع من الأبحاث لإجلاء مضامين القرآن الكريم، والكشف عن مقاصده العظيمة.

*** خطة البحث:**

قسمت البحث إلى مقدمة وثلاثة مباحث وخاتمة، وجاء على النحو الآتي:

المقدمة: وفيها أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وأهدافه، ومنهج البحث، وخطته.

المبحث الأول: بين يديْ سورة الملك، وفيه ثمانية مطالب:

المطلب الأول: اسم السورة.

المطلب الثاني: دلالة الاسم على المضمون.

المطلب الثالث: مكان نزول السورة، وعدد آياتها.

المطلب الرابع: فضائل السورة.

المطلب الخامس: مناسبة السورة لما قبلها.

المطلب السادس: مناسبة السورة لما بعدها.

المطلب السابع: محور السورة وعلاقته بموضوعاتها.

المطلب الثامن: مناسبة آخر السورة لأولها.

المبحث الثاني: مظاهر القدرة والملك في السورة، وفيه اثنا عشر مطلباً:

المطلب الأول: افتتاح السورة بلفظ (تبارك).

المطلب الثاني: خلْق الموت والحياة والابتلاء بهما.

المطلب الثالث: خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين.

المطلب الرابع: ذكر جهنم وبيان وصفها وهيئتها وخزنتها.

المطلب الخامس: العلم التام بالسر والعلن.

المطلب السادس: تذليل الأرض وبث الأرزاق فيها.

المطلب السابع: علو الله تعالى على خلقه والتهديد بالخسف والحاصب.

المطلب الثامن: إمساك الطير في السماء.

المطلب التاسع: إظهار قدرة الله تعالى وغلبته، والتهديد بإمساك الرزق.

المطلب العاشر: الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة.

المطلب الحادي عشر: الذرء في الأرض والحشر، والاختصاص بعلم الآخرة.

المطلب الثاني عشر: القدرة على إيجاد الماء والذهاب به.

المبحث الثالث: الآثار الإيمانية في السورة.

الخاتمة: وفيها النتائج وتوصياته.

وبعد: فقد حاولت قدر الطاقة أن أتأمل وأتدبر الآيات وأذكر ما أراه متوافقاً مع هذا التأمل من أقوال المفسرين، مع ربط الآيات جميعها بالمحور الأساس للسورة، متجنباً التفصيل في المفردات والخوض في القراءات والمسائل النحوية.

وفي البحث محاولة للعيش مع علماء الأمة ومفسريها، وسبر أقوالهم والمزج بينها، والخروج بما يفيد، ومع ذلك فالنقص والخلل من طبع الإنسان، ورحم الله القائل:

وإن كان خرق فادّركه بفضلة *** من الحلم وليصلحه من جاد مقولا[(١)]

وصلى الله على سيدنا ونبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) حرز الأماني ووجه التهاني (الشاطبية): (٧).

المبحث الأول

بين يديْ سورة الملك

المطلب الأول: اسم السورة:

تعددت أسماء سورة (الملك)، وفي ذلك إشارة إلى مزية هذه السورة وعظمتها، قال الفيروز آبادي: " اعلم أن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى أو كماله في أمر من الأمور، أما ترى أن كثرة أسماء الأسد دلت على كمال قوته ... وكذلك كثرة أسماء الله تعالى دلت على كمال عظمته ..."(١)، ومن أسماء هذه السورة:

١ - سورة الملك، وهو الشائع في المصاحف اليوم(٢)، وكذا عنونها البخاري(٣)، والترمذي(٤).

٢ - سورة (تبارك الذي بيده الملك)، وهذه تسمية الرسول ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: "سورة في القرآن ثلاثون آية تستغفر لصاحبها حتى يغفر له، وهي سورة: (تبارك الذي بيده الملك) "(٥).

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز: (٨٨/١).

(٢) انظر: طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف برواية حفص: (٥٦٢)، وطبعة المجمع بروية ورش: (٥١٤)، وطبعة المجمع برواية الدوري: (٤٧٧).

(٣) انظر: صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الملك: (١٨٦٩/٤).

(٤) انظر: سنن الترمذي، كتاب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في فضل سورة الملك: (١٤٦/٥).

(٥) صحيح ابن حبان: (٦٩/٣)، واللفظ له، وانظر: سنن أبي داوود: (٥٧/٢)، سنن الترمذي: (١٤٦/٥)، وهو عنده بلفظ: (شفعت)، وقال الترمذي: " هذا حديث حسن "، والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن أبي داوود: (٣٠٠/٣).

قلت: وهذه تسمية للسورة بأول جملة بُدِئت بها.

٣ - سورة (تبارك)، عن أنس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: "سورة في القرآن ما هي إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة وهي سورة تبارك "[١].

قلت: وهذه تسمية للسورة بأول لفظة.

٤ - المانعة، عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: " يؤتى الرجل في قبره فتؤتى رجلاه فتقول: ليس لكم على ما قِبَلنا سبيل، كان يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى من قِبَل صدره أو قال بطنه فيقول: ليس لكم على ما قِبَلِي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى رأسه فيقول: ليس لكم على ما قِبَلِي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك، قال: فهي المانعة تمنع عذاب القبر، وهي في التوراة سورة الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب "[٢].

قلت: وهذه التسمية مأخوذة من وصف النبي ﷺ إياها بأنها المانعة، قال ابن عاشور: " وليس بالصريح في التسمية "[٣].

٥ - المنجية، ذكر ذلك البقاعي، والفيروز آبادي، والسخاوي وذكره السيوطي عن ابن عساكر في تاريخه أن رسول الله ﷺ سماها المُنْجية[٤].

(١) المعجم الأوسط، للطبراني: (٧٦/٤)، الحديث رقم: (٣٦٥٤)، الأحاديث المختارة: (١١٤/٥)، الحديث رقم: (١٧٣٨)، وإسناده حسن، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: (٢٧٠/٧)، وقال الهيثمي: رجاله رجال الصحيح.

(٢) المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني: (٣٧٩/٣)، فضائل القرآن، لابن الضريس: (١٠٥)، السنن الكبرى، للنسائي: (٢٦٢/٩) مختصرا، المستدرك، للحاكم: (٥٤٠/٢)، وقال: " صحيح الإسناد " واللفظ له. المعجم الكبير، للطبراني: (١٣١/٩)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب: (٩١/٢).

(٣) التحرير والتنوير: (٦/٢٩). وانظر: جمال القراء: (٣٨/١، ٦٩)، الإتقان: (٣٦٥/٢).

(٤) انظر: مصاعد النظر: (١٠٢/٣)، الإتقان: (٣٦٦/٢)، قال محققه: "وإسناده ضعيف جداً".

٦ - الواقية[١].

٧ - المنّاعة[٢].

٨ - المجادِلة، قال الفيروز آبادي:" لأنها تجادل منكرا ونكيرا فتناظرهما كيلا يؤذيا قارئها"[٣].

٩ - الدافعة، الشافعة، المخلِّصة[٤].

١٠ - المطهرة، قال الشوشاوي: " فلأنها تطهر صاحبها من خطاياه كلها "[٥].

قلت: أغلب هذه الأسماء أخذت من الأحاديث الواردة في فضلها، وما ذكر من أسماء إنما هي صفات للسورة - كما تلحظ - والله أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: جمال القراء: (٣٨/١)، الإتقان: (٣٦٦/٢)، التحرير والتنوير: (٦/٢٩).

(٢) انظر: المصادر السابقة.

(٣) بصائر ذوي التمييز: (٤٧٣/١)، وانظر: الإتقان: (٣٦٦/٢).

(٤) انظر: بصائر ذوي التمييز: (٤٧٣/١).

(٥) انظر: أسماء سور القرآن الكريم: (١٧٥)، نقلا عن كتاب: الفوائد الجميلة على الأبيات الجليلة: (٣٨٥).

المطلب الثاني

دلالة الاسم على المضمون

يقول البقاعي: "واسمها (الملك) واضح في ذلك، لأن الملك محل الخضوع من كل مَن يرى الملك، وكذا (تبارك)، لأن من كان كذلك كان له تمام الثبات والبقاء، وكان له من كل شيء كمال الخضوع والإتقان، وكذا اسمها (المانعة) و(الواقية) و(المنجية)، لأن الخضوع حامل على لزوم طريق السعادة، ومن لزمها نجا مما يخاف، ومنع من كل هول، ووقي كل محذور، وترد السؤال عمن لازم عليها، وهذا من أهم الأمور "[(١)].

لكن يبقى السؤال: لماذا خُصت هذه السورة بالشفاعة لصاحبها دون ما سواها من السور؟

لم أقف على قول لأحد المفسرين في هذه المسألة، ويمكن أن يقال: إن ذلك فضل من الله خص به صاحبها كما خص صاحب سورتي البقرة وآل عمران بالاستظلال بظلهما يوم القيامة.

ويحتمل أيضاً أن سبب شفاعتها لصاحبها أن المؤمن حين يقرأ هذه السورة ويكررها مستشعرا ما فيها من علامات قدرة الله سبحانه في خلق الموت والحياة وخلق هذه الأمور العظام التي بينتها السورة فكل هذه المظاهر لا يملكها إلا الله فيقع في القلب قدرة الله على تعذيب العبد في قبره قبل تعذيبه في الآخرة، وهذا لا يملكه إلا الله فلما استشعر ذلك كله ناسب أن تشفع لصاحبها من عذاب القبر الذي لا يملكه ولا يقدر عليه إلا الله وهو الملك الذي بيده كل شيء. والله أعلم.

---

(١) نظم الدرر: (٢١٥/٢٠).

المطلب الثالث

مكان نزول السورة، وعدد آياتها

سورة الملك مكية بالإجماع[١].

وعدد آياتها: إحدى وثلاثون آية في عدِّ أهل الحجاز - المكي والمدني - فهم يعدون: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ [الملك/٩] آية، وثلاثون في عدِّ الباقين[٢].

قلت: وما جاء في الحديث السابق: (سورة في القرآن ثلاثون آية...) يؤيد القول الثاني.

المطلب الرابع

فضائل السورة

هذه السورة سورة عظيمة، جاء في فضلها عدة أحاديث تختلف من حيث الصحة والضعف، وقد تقدم بعضها في تسمية السورة، ومنها:

١- عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: " يؤتى الرجل في قبره فتؤتى رجلاه فتقول: ليس لكم على ما قِبَلنا سبيل، كان يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى من قِبَل صدره أو قال بطنه فيقول: ليس لكم على ما قِبَلِي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك، ثم يؤتى رأسه فيقول: ليس لكم على ما قِبَلِي سبيل كان يقرأ بي سورة الملك، قال: فهي المانعة تمنع عذاب القبر، وهي في التوراة سورة

(١) انظر: المحرر الوجيز: (٣٣٧/٥)، الجامع لإحكام القرآن: (٢٠٥/١٨)، التحرير والتنوير: (٦/٢٩).

(٢) انظر: البيان في عد آي القرآن: (٢٥١)، جمال القراء: (٢٢٢/١).

الملك من قرأها في ليلة فقد أكثر وأطيب"[1].

٢- عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: " سورة في القرآن ثلاثون آية تستغفر لصاحبها حتى يغفر له، وهي سورة (تبارك الذي بيده الملك) "[2].

٣- عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: " إن سورة من كتاب الله عز وجل ما هي إلا ثلاثون آية شفعت لرجل فأخرجته من النار وأدخلته الجنة"[3].

وفي لفظ عن أنس ﷺ: "سورة في القرآن ما هي إلا ثلاثون آية خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة وهي سورة تبارك ".

٤ – عن جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ: " كان لا ينام حتى يقرأ: (آلم تنزيل)، و(تبارك الذي بيده الملك) "[4].

٥ – عن عكرمة أن ابن عباس قال لرجل: ألا أُطرِفُك[5] بحديث تفرح به؟ قال الرجل: بلى، يا أبا عباس رحمك الله، قال: اقرأ: (تبارك الذي بيده الملك) واحفظها وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك، فإنها المنجية، وهي المجادلة تجادل، وتخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها، وتطلب له

(١) تقدم تخريجه في تسمية السورة.

(٢) تقدم تخريجه في تسمية السورة.

(٣) المستدرك على الصحيحين، للحاكم: (٢/٥٤٠)، وقال: " حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه "، الأحاديث المختارة، للضياء المقدسي: (٥/١١٤)، صحيح الجامع الصغير وزيادته: (١/٦٨٠)، وقد حسَّن الألباني الروايتين.

(٤) مسند أحمد: (٣/٣٤٠)، سنن الترمذي: (٥/٤٧٥)، عمل اليوم والليلة للنسائي:٤٣١، المستدرك على الصحيحين: (٢/٤٤٦)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: (٣/١٤٥)، وفي السلسلة الصحيحة ٢/١٣٠.

(٥) يقال: أطرفه بكذا: أتحفه به، وأتاه بما هو مستحسن وعجيب من الأحاديث...وأطرفته شيئاً لم يملكْ مِثلَه فأعجبه... انظر: العين مادة (طرف)، والمعجم الوسيط مادة (طرف).

إلى ربها أن ينجيه من النار إذا كانت في جوفه، وينجي الله بها صاحبها من عذاب القبر "[1].

ونستخلص مما سبق أنَّ لهذه السورة فضلاً عظيماً يجدر بنا أن نطلبه بقراءتها وتعليمها للأهل والأولاد وعموم المسلمين أجمعين.

* * *

(١) المنتخب من مسند عبد بن حميد: (٢٠٦/١).

المطلب الخامس

مناسبة السورة لما قبلها

قال أبو جعفر ابن الزبير: " ورود ما افتتحت به هذه السورة من التتريه وصفات التعالي إنما يكون عقيب تفصيل وإيراد عجائب من صنعه سبحانه، كورود قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، عقيب تفصيل التقلب الإنساني من لدن خلقه من سلالة من طين إلى إنشائه خلقاً آخر... ولما كان قد أوقع في آخر سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر، وأعلى آية لمن استبصر من ذكر امرأتين كانتا تحت عبدين صالحين قد بعثهما الله تعالى رحمة لعباده، واجتهدا في دعاء الخلق، فحرما الاستنارة بنورهما والعياذ بهداهما من لم يكن أحد من جنسهما أقرب إليهما منه، ولا أكثر مشاهدة لما مُدّا به من الآيات وعظيم المعجزات، ومع ذلك فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً.

ثم أعقبت هذه القصة بما جعل في طرف منها ونقيض من حالها، وهو ذكر امرأة فرعون التي لم يضرها مرتكب صاحبها وعظيم جرأته، مع شدة الوصلة واستمرار الألفة لما سبق لها في العلم القديم من السعادة وعظيم الرحمة فقالت: ﴿ رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ ﴾ [التحريم/١١]، وحصل في هاتين القصتين تقديم سبب رحمة حرم التمسك به أولى الناس في ظاهر الأمر، وتقديم سبب امتحان سلم منه أقرب الناس إلى التورط فيه.

ثم أعقب ذلك بقصة عرِّيت عن مثل هذين السببين وانفصلت في مقدماتها عن تينك القصتين، وهو ذكر مريم ابنة عمران ليعلم العاقل حيث يضع الأسباب، وأن القلوب بيد العزيز الوهاب، أعقب تعالى ذلك بقوله الحق

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك:١] وإذا كان الملك سبحانه وتعالى بيده الملك فهو الذي يؤتي الملك والفضل من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء كما صرحت به الآية الأخرى في آل عمران[١]، فقد اتضح اتصال سورة الملك بما قبلها ثم بنيت سورة الملك على التنبيه والاعتبار ببسط الدلائل ونصب البراهين حسبما يبسطه التفسير "[٢].

ويقول البقاعي: "... لما ختمت تلك بأن من أعرض عنه سبحانه أهلكته و لم يغن عنه أحد ومن أقبل عليه رفعه واستخلصه و لم يضره أحد، وختم بأنه قوّى مريم عليها السلام حتى كانت في درجة الكَمَلة، ورزقها الرسوخ في الإخلاص، وكان مثل هذا لا يقدر على فعله إلا من لا كفوء له، وكان من لا كفوء له أهلاً لأن يخلص له الأعمال ولا يلتفت إلى سواه بحال، لأنه الملك الذي يملك الملك قال مثيراً للهمم إلى الاستبصار المثير للإرادة إلى رياضة تثمر جميع أبواب السعادة: (تبارك) أي: تكبَّر وتقدَّس وتعالى وتعاظم وثبت ثباتاً لا مثل له مع اليُمن والبركة وتواتر الإحسان والعلى..."[٣].

ويقول السيوطي: " ظهر لي بعد الجهد أنه لما ذكر آخر التحريم امرأتي نوح ولوط الكافرتين، وامرأة فرعون المؤمنة، افتتحت هذه السورة بقوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ مراداً بهما الكفر والإيمان في أحد الأقوال، للإشارة إلى أن الجميع بخلقه وقدرته، ولهذا كفرت امرأتا نوح ولوط، و لم ينفعهما

(١) يشير أبو جعفر ابن الزبير إلى قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[آل عمران/٢٦].

(٢) البرهان في تناسب سور القرآن: (١٩٠).

(٣) نظم الدرر: (٢١٦/٢٠).

اتصالهما بهذين النبيين الكريمين، وآمنت امرأة فرعون، و لم يضرها اتصالها بهذا الجبار العنيد، لما سبق في كل من القضاء والقدر.

ووجه آخر: وهو أن (تبارك) متصل بقوله في آخر الطلاق: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [الطلاق/١٢]، فزاد ذلك بسطاً في هذه الآية: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [الملك/٣] إلى قوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ [الملك/٥]، وإنما فصلت بسورة التحريم لأنها كالتتمة لسورة الطلاق"[(١)].

وقال الألوسي: " ووجه مناسبتها لما قبلها أنه تعالى لما ضرب مثلا للكفار بتينك المرأتين المحتوم لهما بالشقاوة – وإن كانتا تحت نبيين عظيمين – ومثلا للمؤمنين بآسية ومريم – وهما محتوم لهما بالسعادة وإن كان أكثر قومهما كفار – افتتح هذه بما يدل على إحاطته عز وجلّ وقهره وتصرفه في ملكه على ما سبق به قضاؤه..."[(٢)].

والذي ظهر لي زيادة على ما سبق: أن مما ذكر في خواتم سورة التحريم من إيمان وإسلام إنما كان بقدرة من الله تعالى الذي يملك القلوب ويقلبها كيف يشاء.

كما أن في ذكر مريم عليها السلام ونفخ الروح في جيبها ليكون عيسى عليه السلام نبياً مرسلاً آية من آيات قدرته تعالى، ولذا أسلمت مريم وآمنت بنبوة ولدها إيمانا منها بقدرة الله تعالى المطلقة في كل شيء. ثم أعقب في سورة الملك بذكر مظاهر أكثر وأعظم على قدرته ليؤمن به كل من لديه أدنى

---

(١) أسرار ترتيب القرآن: (٢٠/١).

(٢) روح المعاني: (٥/٢٩).

ذرة من عقل. والله أعلم.

ومما يضاف للمناسبة بين مضمون السورتين أن سورة التحريم تحدثت عن بعض أوصاف جهنم وعن خزنتها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم/٦] وتحدثت سورة الملك عن صفاتها وعن طرف من المحاورة بين الخزنة وأصحاب السعير، قال تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٦ إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك/٦ – ١١].

* * *

المطلب السادس

مناسبة السورة لما بعدها

قال السيوطي: " لما ذكر سبحانه في آخر تبارك التهديد بتغوير الماء، استظهر عليه في هذه السورة بإذهاب ثمر أصحاب البستان في ليلة يطاف عليه فيها، وهم نائمون، فأصبحوا لم يجدوا له أثراً، حتى ظنوا أنهم ضلوا الطريق وإذا كان هذا في الثمار وهي أجرام كثيفة، فالماء الذي هو لطيف رقيق أقرب إلى الإذهاب، ولهذا قال: ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٩، ٢٠]، وقال هناك: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [الملك: ٣٠] إشارة إلى أنه يسرى عليه في ليلة كما سرى على الثمرة في ليلة"[1].

قلت: وفي السورتين –الملك والقلم– عرض لبعض مشاهد القيامة، قال تعالى في سورة الملك: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك/٦ –٨]، وقال تعالى في سورة القلم: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ [القلم/٤٢، ٤٣].

وفي سورة القلم مظاهر عديدة لقدرته تعالى من خلق القلم وتعليم الإنسان للكتابة، وتكميل خُلُق الرسول عليه الصلاة والسلام، ومعرفته تعالى بمن ضل الطريق وبمن اهتدى، ومعرفته بأحوال البشر ومكامن نفوسهم وأدق التفاصيل في ذلك....والله أعلم.

(١) أسرار ترتيب القرآن: (١/٢٠).

المطلب السابع

محور السورة وعلاقته بموضوعاتها

بعد تأمل في محور السورة ظهر لي أنه يدور حول قضيتين، وهما:

القضية الأولى: بيان حقيقة الملك لله سبحانه وتعالى، فهذه السورة في مطلعها تقرر أن الملك المطلق لله تبارك وتعالى، يقول ابن عاشور: "... وتقديم المسند، وهو (بِيَدِهِ) على المسند إليه - (الذي) - لإفادة الاختصاص، أي: الملك بيده لا بيد غيره... وفيه دلالة على عظمة الملك جل في علاه.

وهو قصر ادعائي[1] مبني على عدم الاعتداد بمُلك غيره، ولا بما يتراءى من إعطاء الخلفاء والملوك الأصقاع للأمراء والسلاطين وولاة العهد، لأن كل ذلك مُلك غير تام، لأنه لا يعمّ المملوكات كلها، ولأنه معرض للزوال، ومُلك الله هو الملك الحقيقي، قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: ١١٤]، فالناس يتوهمون أمثال ذلك مُلكاً وليس كما يتوهمون "[2].

قال الألوسي:"... ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال وإنبائها عن نهاية التعظيم لم يجز استعمالها - أي: تبارك - في حق غيره سبحانه..."[3].

---

(١) القصر الادعائي ما كان القصر الحقيقي فيه مبنيًّا على الادعاء والمبالغة بتنزيل غير المذكور منزلة العدم وقصر الشيء على المذكور وحده. انظر: حاشية محقق الإيضاح للقزويني ٦/٣. ومثله: " ما عادل إلا عمر " ففيه قصر صفة العدالة على "عمر" قصرا حقيقياً ادعائيا، لأنها توجد في غيره ولكنها في "عمر" أكمل منها في سائر الأفراد، فاعتبر كأن لم يكن عادل سواه ". انظر: المنهاج الواضح للبلاغة ٧٢/٢. قلت: نظر ابن عاشور إلى نفي الحكم عما عدا المقصور عليه، باعتبار أن ما عداه في حكم المعدوم مبالغة. والله أعلم.

(٢) التحرير والتنوير: (٩/٢٩).

(٣) روح المعاني: (٦/٢٩).

القضية الثانية: بيان حقيقة قدرة الله تعالى، " فهذه السورة افتتحت بما يدل على منتهى كمال الله تعالى افتتاحاً يؤذن بأن ما حَوْله يحوم حول تتريه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لمّا نسبوا إليه شركاء في الربوبية والتصرف معه والتعطيل لبعض مراده. ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال..."[1].

وهذه السورة "تعالج إنشاء تصور جديد للوجود وعلاقاته بخالق الوجود... ومفتاح السورة كلها، ومحورها الذي تشد إليه تلك الحركة فيها، هو مطلعها الجامع الموحي: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ وعن حقيقة الملك وحقيقة القدرة تتفرع سائر الصور التي عرضتها السورة، وسائر الحركات المغيبة والظاهرة التي نبهت القلوب إليها.

فمن الملك ومن القدرة كان خلق الموت والحياة، وكان الابتلاء بهما، وكان خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين، وكان إعداد جهنم بوصفها وهيئتها وخزنتها، وكان العلم بالسر والجهر، وكان جعل الأرض ذلولاً للبشر، وكان الخسف والحاصب والنكير على المكذبين الأولين، وكان إمساك الطير في السماء، وكان القهر والاستعلاء، وكان الرزق كما يشاء، وكان الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة، وكان الذرء في الأرض والحشر، وكان الاختصاص بعلم الآخرة، وكان عذاب الكافرين، وكان الماء الذي به الحياة وكان الذهاب به عندما يريد.

فكل حقائق السورة وموضوعاها، وكل صورها وإيحاءاها مستمدة من إيحاء ذلك المطلع ومدلوله الشامل الكبير: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. وحقائق السورة وإيحاءاها تتوالى في السياق، وتتدفق بلا توقف،

(١) التحرير والتنوير: (٩/٢٩)، بتصرف يسير.

مفسرة مدلول المطلع المجمل الشامل..."[١].

ويذهب البقاعي إلى أن مقصود السورة هو الخضوع لله تعالى، فقال: " مقصودها الخضوع لله تعالى لاتصافه بكمال الملك الدال عليه تمام القدرة الدال عليه قطعا إحكام المكنونات الدال عليه تمام العلم الدال عليه مع إحكام المصنوعات علم ما في الصدور لينتج ذلك العلم بتحتم البعث لدينونة العباد على ما هم عليه من الصلاح والعناد كما هي عادة الملوك في دينونة رعاياهم لتكتمل الحكمة وتتم النعمة..."[٢].

ولا تعارض بين مقصود السورة الذي ذكره البقاعي مع ما ذكره ابن عاشور وغيره في بيان مقصود السورة وغرضها، إذ أن الخضوع المطلق إنما يحصل للمَلِك الذي عرف الناس قدرته وأمره النافذ في كل شيء، وهذا لا يكون إلا لله تعالى إذ أن ملكه على كل شيء ومظاهر قدرته التي في السورة وفي غيرها لا تخفى.

فإذا علمت مظاهر قدرته ودلائل عظمته وملكه تعالى، واستقر ذلك في النفس فإن الإنسان سيسلم بأنه الملك الحق الذي يستحق العبادة وحده دون ما سواه، وهذا هو الخضوع والانقياد والاستسلام لله رب العالمين.

وبإيجاز فالسورة "تركز على إظهار كمال ملك الله وقدرته، بعثا على خشيته، وتحذيراً من عقابه "[٣].

* * *

(١) في ظلال القرآن: (٦/٣٦٣٠).

(٢) نظم الدرر: (٢٠/٢١٥).

(٣) المختصر في التفسير: (٥٦٢).

المطلب الثامن
مناسبة آخر السورة لأولها

افتتحت سورة الملك ببيان عظيم بركته تعالى وتمام قدرته، وتفرده تعالى بالملك والإماتة والإحياء، ثم ختمت بذكر أعظم سبب للحياة وهو الماء، وهو مظهر من مظاهر الملك والقدرة، فجاء ختام السورة متناسبا مع افتتاحيتها.

قال جلال الدين السيوطي: " بدئت بوصف القدرة وختمت بمعناه، وهو عجز البشر في قوله: ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينِۭ﴾ [الملك:٣٠] "[١]، فرجع الآخِر على الأول وعانقه على أحسن وجه وأتم بيان، فسبحان من أظهر قدرته، وأبان عظمته[٢].

* * *

(١) مراصد المطالع: (١٦٨).

(٢) انظر: نظم الدرر: (٢٠/٢٤٠).

المبحث الثاني

مظاهر القدرة والملك في السورة

المطلب الأول: افتتاح السورة بلفظ (تبارك):

أول مظهر من مظاهر الملك والقدرة الإلهية هو لفظ (تبارك)، الـــذي افتتحت به هذه السورة الكريمة، قال تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [الملك/١].

وإن المتدبر للآيات التي وردت فيها لفظ (تبارك) في القرآن الكريم[١] يجدها تتعلق بنعم ومنن من الله تكاثرت وعمّت جميع خلقه.

و(تبارك) فعل جامد لا يتصرف وهو مما يختص به تعالى دون سواه[٢]، وقد اختلف أهل التفسير في معناه على عدة أقوال منها: أن معناه: تقدّس،

(١) ورد هذا اللفظ في أكثر من موضع في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَ يَطۡلُبُهُۥ حَثِيثٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف/٥٤]، وقال: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون/١٤]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان/١]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِيٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيۡرٗا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَيَجۡعَل لَّكَ قُصُورَۢا﴾ [الفرقان/١٠]، وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجٗا وَقَمَرٗا مُّنِيرٗا﴾ [الفرقان/٦١]، وقال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [غافر/٦٤]، وقال: ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [الزخرف/٨٥]، وقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِي ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ [الرحمن/٧٨].

(٢) انظر: أضواء البيان مع التتمة: (٦/٢٦٣).

وقيل: تفاعل، من البركة، وهي الكثرة والاتساع. وقيل: تَعَالى، وقيل: تعالى عطاؤه، أي: زاد وكثر. وقيل المعنى: دام وثبت إنعامه، ورجحه النحاس وقال: "وهذا أولاها في اللغة والاشتقاق من برك الشيء إذا ثبت، ومنه برك الجمل..." [1]. وقيل: تمجّد، وقيل: تعظّم وارتفع. وقيل: هو من البركة، وهو التزايد في الخير من قِبَله. فالمعنى زاد خيره وعطاؤه وكثر [2].

والأظهر في معنى (تبارك) بحسب اللغة التي نزل بها القرآن أنه تَفَاعَل من البركة، كما جزم به ابن جرير الطبري [3].

وعليه فمعنى تبارك: تكاثرت البركات والخيرات من قِبله، وذلك يستلزم عظمته وتقدّسه عن كل ما لا يليق بكماله وجلاله، لأن من تأتي من قِبله البركات والخيرات ويدر الأرزاق على الناس هو وحده المتفرد بالعظمة، واستحقاق إخلاص العبادة له. والذي لا تأتي من قِبله بركة ولا خير، ولا رزق كالأصنام، وسائر المعبودات من دون الله لا يصح أن يعبد وعبادته كفر مخلد في نار جهنم..." [4].

والذي يظهر لي أن جميع الأقوال السابقة مرادة ولا تعارض بينها، وكلها صحيحة في معنى (تبارك) فهو عز وجلّ تعاظم وتقدّس وتمجّد ودام وثبت إنعامه، وتكاثرت البركات والخيرات من قبله تعالى، وهذا يستلزم عظمته وتقديسه، وبيان بركة هذا المَلِك على خلقه.

---

(١) إعراب القرآن: (١٥١/٣).

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: (١/١٣).

(٣) ذهب ابن جرير إلى أنه بمعنى: تعالى وتعظم في سورة الملك، وفي سورة الفرقان إلى أنها بمعنى: تفاعل من البركة. انظر: جامع البيان: (٣٩٤/١٧، ١١٨/٢٣). ويظهر لي أنه لا تعارض بين قوليه إذ فسر كل موضع بما يقتضي السياق.

(٤) أضواء البيان مع التتمة: (٢٦٢/٦).

وافتتاح السورة بهذا اللفظ - تبارك - يدل على منتهى كمال الله تعالى، ويؤذن بأن ما حَوْله يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون لمّا نسبوا إليه شركاء في الربوبية والتصرف معه والتعطيل لبعض مراده، ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال.

كما أن هذا الافتتاح يوحي بزيادة بركة الله ومضاعفتها، وتمجيد هذه البركة الرابية الفائضة، وذكر الملك بجوارها يوحي بفيض هذه البركة على هذا الملك، وتمجيدها في الكون بعد تمجيدها في جناب الذات الإلهية[1].

كما أن لفظ (تبارك) فيه دلالة على الاختصاص بمعاني السمو المطلق في الذات والصفات وبمعاني الكثرة والزيادة في الإحسان والفضل، ولفضل الله على عباده مظهران:

الأول: هذا الكون الذي خلقه وأبدعه وأودع فيه من الأسرار والمنافع ما تقف العقول دون الإحاطة به.

والثاني: هذا الكتاب المتلو الذي ختم الله به رسالاته وأنزله على عبده محمد ﷺ يوجه به العقل البشري إلى معرفة الحق في الوجود، وإلى خوض غمار الكون والتنقيب في أسراره ومنافعه، والنظر إلى ما فيه من آيات ودلائل تدل على عظمة خالقه جل وعلا[2].

وقوله: ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ الـمُلك: اسم يدل على ذات الله وعلى صفة الملك بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى الصفة وحدها بالتضمن، فالملك من بيده الملك المطلق التام الذي لا يشاركه أحد فيه، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ

(١) انظر: في ظلال القرآن: (٦/٣٦٣١)، التحرير والتنوير: (٢٩/٩).

(٢) انظر: روح المعاني: (٢٩/٦)، إلى القرآن الكريم: (١٣٨).

شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴾[الفرقان/٢]، وقال أيضا: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر/١٣]، واسم الله الملك يدل باللزوم على الحياة والقيومية، والعلو والأحدية، والسيادة والصمدية، والعلم والمشيئة والقدرة والسمع والبصر والقوة، والعدل والحكمة والعظمة، فلا يتصور ملك دائم له الملك التام المطلق بغير هذه الصفات وغير ذلك من صفات الكمال، فالملك الحق هو الذي يستغني بذاته وصفاته عن كل ما سواه، ويفتقر إليه كل موجود سواه.

ومن أهم القضايا المتعلقة بدلالة اللزوم إثبات علو الملك وفوقيته واستوائه على عرشه، وإذا كان كل ملك في الدنيا يلزمه لإثبات ملكه أن يستوي على عرشه مع دوام فوقيته وعلوه، فالملك الخالق أولى بالكمال من المخلوق، لاسيما أن الله أثبت ذلك لنفسه فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه/٥]. فإثبات استواء الله على عرشه من لوازم توحيده في اسمه الملك، ولذلك قال تعالى: ﴿ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴾ [المؤمنون/١١٦]، واسم الله الملك دل على صفة من صفات الذات"[(١)].

"وفي هذه الآية قصر يفيد أن الملك المطلق هو لله تعالى وهو ملك لا يبيد ولا يختل، وتقديم الموصول وصلته هنا بالصفة الخاصة به تعالى وهي قوله: (تبارك) يدل على عظمة الموصول، ولما كان المتصرف في الملك قد لا يكون قدرته تامة ولا عامة قال (وهو) أي: وحده له عظمة تستولي على القلوب:

---

(١) أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة: (٣٧٨)، بترقيم المكتبة الشاملة، وانظر: روح المعاني: (٦/٢٩)، إلى القرآن الكريم: (١٣٨).

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، فلا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، ولا يحول دونه شيء، يخلق ما يشاء، ويفعل ما يريد فهو ملك وليس بملك قاصر يعجز عن بعض الأشياء، إنما هو ملك على كل شيء قدير جرى ملكه في جلائل الأمور ودقائقها، قادر على ما يريده، غالب على أمره، لا تتعلق بقدرته وإرادته حدود أو قيود، وهي حقيقة حين تستقر في الضمير تطلق تصوره لمشيئة الله وفعله من كل قيد يرد عليه من مألوف الحس أو مألوف العقل أو مألوف الخيال.

إن قدرة الله وراء كل ما يخطر للبشر على أي حال، والقيود التي ترد على تصور البشر بحكم تكوينهم المحدود تجعلهم أسرى لما يألفون في تقدير ما يتوقعون من تغيير وتبديل فيما وراء اللحظة الحاضرة والواقع المحدود، أما هذه الآية وهذه الحقيقة فتطلق حسهم من هذا الإسار، فيتوقعون منه تعالى كل شيء بلا حدود، ويكلون له كل شيء بلا قيود "[(١)].

"وجملة (وهو على كل شيء قدير) معطوفة على جملة: (بِيده المُلك) التي هي صلة الموصول وهي تعميم بعد تخصيص لتكميل المقصود من الصلة، إذ أفادت الصلة عموم تصرفه في الموجودات، وأفادت هذه عموم تصرفه في الموجودات والمعدومات بالإعدام للموجودات والإيجاد للمعدومات، فيكون قوله: (وهو على كل شيء قدير) مفيداً معنى آخر غير ما أفاده قوله: (بيده الملك) تفادياً من أن يكون معناه تأكيداً لمعنى (بيده الملك) وتكون هذه الجملة تتميماً للصلة..."[(٢)].

(١) في ظلال القرآن: (٣٦٣/٦)، بتصرف. وانظر: جامع البيان: (١١٨/٢٣)، المحرر الوجيز: (٢/١٥)، تفسير القرآن العظيم: (٣٣٠/٧)، أضواء البيان مع التتمة: (٣٨٧/٨).

(٢) التحرير والتنوير: (١٠/٢٩).

المطلب الثاني

خلْق الموت والحياة والابتلاء بهما

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك/٢] هذه الآية تفصل بعض مظاهر القدرة والملك لله جلّ وعلا وتستوجب كماله المطلق ووجوب التسليم له بالتوحيد والإيمان به، وأنه مستحق للعبادة جلَّ وعلا، والموت أثر من آثار تمكنه المطلق من الملك وتصريفه له، ومظهر من أعظم المظاهر على بيان قدرته تعالى[1].

فهو خلق الموت والحياة من العدم، والموت يشمل الموت السابق على الحياة والموت اللاحق لها، والحياة تشمل الحياة الأولى والحياة الآخرة بما فيها عالم البرزخ، وكل هذا من خلق الله.

ولما كان الخوف من إيقاع المؤلم أدعى إلى الخضوع، لأنه أدل على الملك قدم (الموت)، ولأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقُدم، لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أهم[2].

وقد بينت الآية علة خلق الموت والحياة بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ﴾، أي: ليختبركم في هذه الحياة الدنيا، فالمسألة ليست مصادفة بلا تدبير، وليست جزافا بلا غاية، إنما هو الابتلاء، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾[المؤمنون/١١٥].

و" استقرار هذه الحقيقة في الضمير يدعه أبداً يقظاً حذراً متلفتاً واعياً

(١) انظر: روح المعاني: (٢٩/٨).

(٢) انظر: الجامع لإحكام القرآن: (١٨/٢٠٦)، نظم الدرر: (٢٠/٢١٩).

للصغيرة والكبيرة في النية المستترة والعمل الظاهر، ولا يدعه يغفل أو يلهو، كذلك لا يدعه يطمئن أو يستريح ومن ثم يجيء التعقيب: (وهو العزيز الغفور) ليسكب الطمأنينة في القلب الذي يرعى الله ويخشاه، فالله عزيز غالب، وهو مع ذلك غفور مسامح يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز، فإذا استيقظ القلب، وشعر أنه هنا للابتلاء والاختبار، وحذر وتوقى، فإن له أن يطمئن إلى غفران الله ورحمته وأن يقر عندها ويستريح "[1]، لكن مع إحسان العمل وإخلاصه لله تعالى.

" وعبارة القرآن في إسناد الحسن إلى الإنسان تدل على أن من كان عمله أحسن كان هو أحسن ولو أنه أبشع الناس منظراً، ومن كان عمله أسوأ كان بخلاف ذلك، والحسن إنما يدرك بالشرع، فما حسنه الشرع فهو الحسن وما قبحه فهو القبيح، وكان ذلك مفيداً للقيام بالطاعة، لأن من تفكر في حاله علم أنه مباين لبقية الحيوانات بعقلة، ومن تأمل الآية عرف أنه ما خُلق إلا ليتميز جوهره من صدق غيره أو صدقه من جوهر غيره، وأن الدنيا مزرعة، وأن الآخرة محصدة، فيصير من نفسه على بصيرة، وثارت إرادته لما خُلق له تارة بالنظر إلى جمال ربه من حسن وإحسان، وأخرى إلى جلاله من قدرة وإمكان، وتارة بالنظر لنفسه بالشفقة عليها من خزي الحرمان، فيجتهد في رضا ربه وصلاح نفسه خوفاً من عاقبة هذه البلوى..."[2].

" وجملة: (وهو العزيز الغفور) تذييل لجملة: (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) إشارة إلى أن صفاته تعالى تقتضي تعلقاً بمتعلقاتها لئلا تكون معطلة في بعض الأحوال والأزمان فيفضي ذلك إلى نقائضها، فأما (العزيز) فهو الغالب

(١) في ظلال القرآن: (٦/٣٦٤)، بتصرف يسير.

(٢) نظم الدرر: (٢٠/٢٢٠).

الذي لا يعجز عن شيء، وذكره مناسب للجزاء المستفاد من قوله: (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً)، أي: ليجزيكم جزاء العزيز، فعلم أن المراد الجزاء على المخالفات والنكول عن الطاعة، وهذا حظ المشركين الذين شملهم ضمير الخطاب في قوله (ليبلوكم) "[1]، كما أفاد أن الكلّ محتاج إلى الله حتى لا يغتر مغتر بقوة همته وأنه لا يحتاج إلى كبير تعب للوصول إلى الله.

"وأما (الغفور) فهو الذي يكرم أولياءه ويصفح عن فلتاهم فهو مناسب للجزاء على الطاعات، قال تعـالى: ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴾[طه/٨٢] فهو إشارة إلى حظ أهل الصلاح من المخاطبين"[2].

* * *

(١) التحرير والتنوير: (١٤/٢٩).

(٢) التحرير والتنوير: (١٥/٩).

المطلب الثالث

خلق السماوات وتزيينها بالمصابيح وجعلها رجوماً للشياطين

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ﴾[الملك/٣، ٤]

وهذه صفة ثانية للذي بيده الملك ومظهر من مظاهر قدرته جلَّ وعلا أعقب التذكير بتصرف الله بخلق الإنسان وأهم أعراضه، وبعد أن ذكر آيات الأنفس ذكر آيات الآفاق، ومن ذلك خلق السموات، وفيه إعلام لخلقه بأنه قادر على كل شيء، وأنه مستحق للعبادة.

" وكل ما في هذه الآيات آثار لمدلول الآية الأولى، ومظاهر للهيمنة المتصرفة في الملك، وللقدرة التي لا يقيدها قيد، ثم هي بعد ذلك تصديق للآية الثانية من خلق الموت والحياة للابتلاء، ثم الجزاء "(١).

والسماء: اسم مشتق من الفعل: سما يسمو، والسمو: الارتفاع والعلو، والسماء: سقف كل شيء وكل بيت.

وقد تكرر لفظ (السماء) في القرآن كثيراً، فوردت لفظة (السماء): عشرين ومائة (١٢٠) مرة، ووردت لفظة (السماوات): تسعون ومائة (١٩٠) مرة، وكثيراً ما تجتمع السماء والأرض في آية واحدة (٢).

إنها سبع سماوات طبقة بعد طبقة مناسبة لبعضها البعض في النظام، وخلقها أعظم من خلق البشر، قال تعالى: ﴿ لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ

---

(١) في ظلال القرآن: (٣٦٣٢/٦).

(٢) انظر: من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: (٨٢)، السماء في القرآن: (٧٨).

﴿مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر/٥٧]، ثم يوجه إلى النظر في هذا الخلق على عظمته واتساعه مقرراً ما جاء في قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ فقال: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ فليس هناك خلل ولا اضطراب، لا تصدع ولا شقوق، لا تحتاج إلى ترميم أو إصلاح كسائر السقوف إذا طال بها الزمن ! ولعل مجيء هذه الآية بعد قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ توجيه إلى حسن صنع الله وإبداعه في خلقه[1].

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾انظر مرة أخرى وعد إلى الموضع الذي نظرت إليه ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ هل ترى من تشقق أو تصدع أو خلل في هذا النظام ؟

وهو "استفهام تقريري ووقع بـ(هل) لأن (هل) تفيد تأكيد الاستفهام إذ هي بمعنى (قد) في الاستفهام، وفي ذلك تأكيد وحث على التبصر والتأمل، أي: لا تقتنع بنظرة ونظرتين، فتقول: لم أجد فُطوراً، بل كَرّر النظر وعاوده باحثاً عن مصادفة فُطور لعلك تجده "[2].

وقوله:﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ عاود التأمل في خلق السموات مرات بعد مرات فسيعود إليك البصر من غير اختيار خائباً لم يجد ما يطلبه، كليلاً انقطع من شدة التأمل والتحديق والتكرير!... والمنصوص عليه هنا إرجاع البصر كرتين، ولكن حقيقة النظر أربع مرات:

الأولى في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾.

الثانية في قوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾.

الثالثة والرابعة في قوله: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، وليس بعد معاودة النظر

(١) انظر: أضواء البيان مع التتمة: (٣٩٠/٨).

(٢) التحرير والتنوير: (١٧/٢٩)، بتصرف يسير، وانظر: في ظلال القرآن: (٣٦٣٣/٦).

أربع مرات من تأكيد[١].

إنه أسلوب التحدي الذي من شأنه أن يثير الاهتمام والجد في النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله، وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملة المتدبرة هي التي يريد القرآن أن يثيرها وأن يبعثها في قلوب الناس، ليتدبروا وليتأملوا عظمة الله في خلق الكون، ليقودهم هذا التأمل إلى الإيمان بالله والاستسلام له سبحانه وتعالى، وهذا مقصد عظيم من مقاصد القرآن.

وفي الآيات تعريض بأهل الشرك الذين أضاعوا النظر والاستدلال بما يدل على وحدانية الله تعالى بما تشاهده أبصارهم من نظام الكواكب، وذلك ممكن لكل من يبصر، لكنه عمى البصر والبصيرة والعياذ بالله[٢].

والتعبير بـــ(الرحمن) إيماء إلى أن هذا النظام مما اقتضته رحمته بالناس لتجري أمورهم على حالة تلاءم نظام عيشهم، لأنه لو كان فيما خلق الله تفاوت لكان ذلك التفاوت سبباً لاختلال النظام فيتعرض الناس بذلك لأهوال ومشاق، كما يشعر أن جميع مخلوقاته فيها دقة في الصنع، فيها الحكمة من الخلق، فيها معنى الاستواء، وتدخل السموات في ذلك[٣].

وأيضاً في ذلك الوصف تورك على المشركين إذْ أنكروا اسمه تعالى (الرحمن): ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴾ [الفرقان/٦٠][٤].

ولقد بيَّن سبحانه في آية أخرى أن السموات والأرض كانتا رتقاً، قال

(١) انظر: أضواء البيان مع التتمة: (٣٩٢/٨).

(٢) انظر: في ظلال القرآن: (٣٦٣٣/٦، التحرير والتنوير: (١٦/٢٩).

(٣) انظر: أضواء البيان مع التتمة: (٣٨٩/٨).

(٤) انظر: نظم الدرر: (٢٢٨/٢٠)، التحرير والتنوير: (١٦/٢٩).

تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[الأنبياء/٣٠]، أي: متلاصقة بعضها ببعض، ففتقها الله وجعلها سبع سموات، وفصل بينها وبين الأرض، ورفع السماء إلى مكانها، وأقر الأرض في مكانها، وفصل بينهما بالهواء وغيره، وفتق السماء فأنزل منها الماء، وفتق الأرض فأنبتت النبات، وكل ذلك بيان لقدرته جل وعلا، وأنه مستحق للعبادة.

وقد بيَّن سبحانه في آيات أخرى أن السماء سقف للأرض كالسقف للبيت، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء/٣٢]... وهذا من كمال قدرته وكمال ملكه، مما يستلزم توحيده والإيمان به تعالى[1].

ومن مظاهر قدرته التي قررتها السورة خلق النجوم مصابيح وجعلها ورجوماً للشياطين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴾[الملك/٥].

لما أخبر سبحانه وتعالى عن بديع هذا الخلق، ونبه على بعض دقائقه وأمر بالإبصار وتكريره، وكان السامع أول ما يصوب نظره إلى السماء لشرفها، وغريب صنعها، وبديع وضعها، ومنيع رفعها، فكان بحيث يتوقع الإخبار عن هذه الزينة التي رصعت بها، قال في جواب من توقعه مؤكداً بالقسم إعلاماً بأنه ينبغي أن يبعد العاقل عن إنكار شيء مما ينسب إلى صاحب هذا الخلق من الكمال، عاطفاً على ما تقديره: لقد كفى هذا القدر في الدلالة على عظمة مبدع هذا الصنع وتمام قدرته: "(ولقد) واستجلب

---

(١) انظر: جامع البيان: (١٦/٢٥٤- ٢٥٩)، أضواء البيان مع التتمة: (٨/٥٦٣).

الشكر بجلب المسار، فقال ناظراً إلى مقام العظمة صرفاً للعقول عما اقتضاه (الرحمن) من عموم الرحمة تذكيراً بما في الآية الماضية، وتنبيهاً على ما في الزينة بالنجوم من مزجها بالرجوم الذي هو عذاب الجن المتمردين الطاغين.

(زينا) دلالة أخرى تدل على العظمة بعد تلك الدلالة الأولى (السماء الدنيا) أي: أدنى السماوات إلى الأرض وهي التي دائماً تشاهدونها وهي سقف الدار التي اجتمعتم فيها في هذه الحياة الدنيا "[1]، والدنيا تأنيث الأدنى وهي السماء الموالية للأرض، ومفهومه أن بقية السموات ليست فيها مصابيح، ولا وجود للشياطين في غير السماء الدنيا.

"(بمصابيح) أي: نجوم مُتقدة عظيمة جداً، كثرتها تفوت الحصر، ظاهرة سائرة، مضيئة زاهرة، حسنة المنظر، وهي الكواكب التي تنور الأرض بالليل إنارة السرج التي تزينون بها سقوف دوركم..."[2].

"وعدل من تعريف (مصابيح) باللام إلى تنكيره لما يفيده التنكير من التعظيم"[3]. **قلت:** وسياق السورة في بيان عظمته وقدرته جلَّ وعلا.

ومن قدرته وعظمته سبحانه أنه جعل النجوم رجوماً فقال: " (وجعلناها) أي: النجوم من حيث هي بعظمتنا مع كونها زينة، وأعلاما للهداية (رجوما للشياطين) الذين يستحقون الطرد والبعد والحرق من الجن لما لهم من الاحتراق، وذلك بياناً لعظمتنا وحراسة للسماء الدنيا التي هي محل تنزل أمرنا بالقضاء والقدر، وإنزال هذا الذكر الحكيم لئلا يفسدوا باستراق السمع منها على الناس دينهم الحق، ويلبسوا عليهم أمرهم بخلط الحق الذي

(١) نظم الدرر: (٢٢٨/٢٠). وانظر: أضواء البيان مع التتمة: (٣٩٣/٨).

(٢) نظم الدرر: (٢٢٨/٢٠).

(٣) التحرير والتنوير: (١٦/٢٩).

ختمنا به الأديان بالباطل "[1].

(وأعتدنا) هيأنا في الآخرة – مع هذا الذي لهم في الدنيا بما لنا من العظمة – (لهم عذاب السعير) وكان السعير عذاباً لشياطين الجنّ مع كونهم من عنصر النار، وخلقوا من النار، لأن نار جهنم أشد من نار طبعهم، فإذا أصابتهم صارت لهم عذاباً، ومن عظيم قدرته أن الشياطين خلقت من نار وتعذب بالشهب، وهي من النار، إنها عظمة الله وقدرته المطلقة في كل شيء وعلى كل شيء [2].

وقد ذكر الله جلّ وعلا في الآية السابقة حكمته العظيمة في خلق النجوم، وجاء كذلك ذكر لفائدة ثالثة لخلق النجوم، فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧]، وقال أيضاً: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾[النحل/١٦]، قال قتادة: " خلقت النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف بما لا علم له به "[3].

* * *

(١) نظم الدرر: (٢٠/٢٣٠)، بتصرف يسير.

(٢) التحرير والتنوير: (٢٩/٢١)، بتصرف. وانظر: أضواء البيان مع التتمة: (٨/٣٩٥).

(٣) انظر: جامع البيان: (٢٣/١٢٣).

المطلب الرابع

ذكر جهنم وبيان وصفها وهيئتها وخزنتها

وهذا مظهر من مظاهر قدرته وهو ما أعده للكافرين المتبعين للشيطان في هذه الحياة الدنيا، فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الملك/٦ - ١١].

إن العذاب ليس للشياطين دون أتباعهم بل هو للتابع والمتبوع، ولأجل ما في الجملة من زيادة الفائدة غايرت الجملة التي قبلها فلذلك عطفت عليها، وتقديم المجرور للاهتمام بتعلقه بالمسند إليه والمبادرة به، وهذه النار لا خلاص لهم منها ولذا قال (وبئس المصير)[1].

" ولما عبر عن ذمها بمجمع المذام، أتبعه الوصف لبعض تجهمها على وجه التعليل، فقال دالاً بالإلقاء على خساستهم وحقارتهم، معبراً بأداة التحقيق، دلالة على أنه أمر لا بد منه، وبالبناء للمفعول على أن إلقاءهم في غاية السهولة على كل من يؤمر به: (إذا أُلقوا) أي: طُرح الذين كفروا من أي طارح أمرناه بطرحهم (فيها) حين تعتلهم الملائكة فتطرحهم كما تطرح الحطب في النار (سمعوا لها) أي: جهنم نفسها (شهيقاً) أي: صوتاً هائلاً،

(١) انظر: التحرير والتنوير: (٢١/٢٨).

(وهي تفور) تغلى بهم كغلي المرجل بما فيه..."[1].

﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ﴾ أي: تكاد تقطع بعضها بعضا، قد اشتد غيظها وحنقها على الكافرين الذي كفروا بربهم، فلم يؤمنوا به و لم يهتدوا إلى النظر في مظاهر عظمته وقدرته وأنه مستحق للعبادة سبحانه وتعالى.

والعجب في عظيم صنعه أنه أثبت للنار حساً وإدراكاً وإرادة، وأثبت أنها تغتاظ، وتبصر وتتكلم وتطلب المزيد، وكلها من مظاهر قدرة الملك الذي هو على كل شيء قدير[2].

ويصور القرآن تلك المناظرة بين خزنة جهنم وأهلها الذين قد استقر بهم القرار فيها، فقال تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾.

إنهم جماعات تلقى في النار تلو جماعات، فيسألهم الخزنة سؤال توبيخ وتقريع، ليزدادوا حسرة إلى حسرتهم " فهي مشاركة لجهنم في الغيظ والحنق، كما هي مشاركة لهم في التعذيب وليس أمرٌّ من الترذيل والتأنيب للضائق المكروب !

فيأتي الجواب- في ذلة وانكسار واعتراف بالحمق والغفلة، بعد التبجح والإنكار "[3] - ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾فالذي يسمع أو يعقل، لا يورد نفسه موارد العطب، ولا يجحد بمثل ما جحد به هؤلاء الكافرون الذين كفروا وكذبوا و لم يؤمنوا، بل وكذبوا بالرسل جميعاً إيغالاً في

(١) نظم الدرر: (٢٠/ ٢٢٩).
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن: (١٨/٢١٢)، أضواء البيان مع التتمة: (٨/٣٩٥).
(٣) في ظلال القرآن: (٦/٣٦٣٥).

الكفر والعناد[١].

لو كانوا يسمعون سمعاً حقيقياً يوصلهم للحق، أو يعقلون عقلاً ينجيهم من كفرهم وعنادهم لما كان حالهم ما ذكر الله من حالة الخزي والسوء.

إن السمع والعقل لهما نعمتان عظيمتان، من تأمل فيهما وأعملهما فيما في هذا الكون -من مظاهر قدرة الله وما يحيط بالإنسان من نعم عظيمة- تدله وترشده على الخالق سبحانه الذي يستوجب الانقياد له بالتسليم والتوحيد والإيمان.

ومن تأمل في تركيب السمع والبصر والعقل وغيرهما من الحواس مع وجود الأجهزة في العصر الحديث ليدرك حق الإدراك وبلا تردد أن هذا السمع وهذا البصر وهذا العقل لم يخلقه إلا ملك عظيم قدرته مطلقة وهو على كل شيء قدير[٢].

"﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾، والسحق البعد. وهو دعاء عليهم من الله بعد اعترافهم بذنبهم في الموقف الذي لم يؤمنوا به ولم يصدقوا بوقوعه. والدعاء من الله قضاء. فهم مبعدون من رحمته. لا رجاء لهم في مغفرة، ولا إقالة لهم من عذاب. وهم أصحاب السعير الملازمون له. ويا لها من صحبة! ويا له من مصير! "[٣].

* * *

(١) انظر: إرشاد العقل السليم: (٣٦٦/٦)، في ظلال القرآن: (٣٦٣٥/٦).

(٢) ووجه تقديم السمع على العقل أن العقل بمنزلة الكلي والسمع بمنزلة الجزئي ورعياً للترتيب الطبيعي، لأن سَمْعَ دعوة النذير هو أولى ما يتلقاه المنذَرون، ثم يعملون عقولهم في التدبر فيها. التحرير والتنوير: (٢٦/٢٩).

(٣) في ظلال القرآن: (٣٦٣٥/٦).

المطلب الخامس
العلم التام بالسر والعلن

بعد أن ذكر حال المكذبين المعرضين عنه الذين لم يُعملوا سمعهم وأبصارهم في مظاهر القدرة لله تعالى لتقودهم إلى الإيمان به والتسليم له، شرع في بيان صنف من الناس امتلأت قلوبهم خشية وخوفا منه تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[الملك/١٢ - ١٤].

" إن خشية الله بالغيب والإيمان بالغيب أساس عمل المسلم كله، ومعاملاته، لأنه بإيمانه بالغيب سيعمل كل خير طمعاً في ثواب الله، وبمخافة الله بالغيب سيتجنب كل سوء "(١).

وإن النظر في مظاهر قدرة الله تعالى في كل شيء واستحضار مراقبته وعظمته في جميع الأحوال والأزمان، يقود العبد المؤمن إلى التسليم والخضوع لله تبارك وتعالى، ويزداد الخضوع والخشوع خاصة في حالة الخلوة حيث تظهر مظاهر استحضار عظمة الملك جلَّ وعلا في القلب فيوقن حقا بأن الله يراه وأنه مطلع على سره ونجواه، ولذا فهو يخشاه كأنه يراه، فكان الجزاء هو المغفرة والتكفير، والأجر الكبير.

إن عظمة الرب جل وعلا ومظاهر قدرته في الآية تكمن في كونه مطلعاً على كل حالات بني آدم إذ أن الخشية هي فعل من الأفعال الباطنة، وهو

---

(١) أضواء البيان مع التتمة: (٨/٤٠١). بتصرف يسير.

ملك قادر قد أحاط بالنفس البشرية وما يختلج فيها فهو بكل شيء عليم، فمن من الملوك يحيط بكل شيء ؟

ثم يأتي عطف آخر يدل على كمال العظمة له تبارك وتعالى إذ يبين أن السر والجهر عنده سواء ممن عصاه أو خشيه واتقاه ! بل ويؤكد ذلك بقوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فليس الأمر مقصورا على ما تلفظ به من كلام فقط، فالأمر أكبر مما تتصور، فهو جل وعلا يعلم ما في الصدور مما تحدث به نفسها ومما تتخيله سواء أعبرت عنه أو لم تعبر عنه !

بل ويأتي بما يقطع الشك في قصور علمه بما في الصدور فقط رادا على ما يختلج في الصدر إذ كيف يعلم ما في الصدر وما في الصدر لا يعلمه إلا صاحبه ؟

فيأتي الجواب مبينا أن الذي خلق أصحاب تلك الصدور أعلم بما فيها ممن يحمل تلك الصدور، إذ لم يعجز عن الخلق أصلاً فهل سيعجزه معرفة ما في دواخلها[1] ؟

وتأمل ما ختمت به الآية: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي: أحاط علمه بالسرائر والخفايا، وأدرك الخبايا والبواطن والأمور الدقيقة، والخبير العليم بما كان وما يكون، المطلع على كنه الشيء وحقيقته[2].

إن التأمل في هذا الأمر حق التأمل ليقود المرء إلى معرفة عظمة الرب جلَّ وعلا، وبيان ملكه وقدرته، فما بقي إلا التسليم والإيمان به جلَّ في علاه.

---

(١) انظر: جامع البيان: (١٢٧/٢٣)، ونظم الدرر: (٢٣٠/٢٠)، التحرير والتنوير: (٢٨/٢٨).

(٢) انظر: إرشاد العقل السليم: (٣٦٨/٦)، صفات الله عز وجل: (١٢٩، ٢٦٦)، لسان العرب، مادة (خبر)، التحرير والتنوير: (٢٨/٢٩).

وهذا يتسق مع بيان مقصود السورة وغرضها.

وفي الآية دلالة على أن السر والجهر عند الله وفي علم الله على حد سواء، فمن مثله يقدر على ذلك، حتى يعبد من دونه ؟!

* * *

المطلب السادس

تذليل الأرض وبث الأرزاق فيها

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك/١٥].

إن خلق الإنسان وعلمِه جلَّ وعلا بما في صدره أمر عظيم يدل على قدرته ووحدانيته وعظمته، لكن أعظم من ذلك خلق الأرض التي هي أكبر من خلق الإنسان، فالإنسان ما هو إلا جزء على هذه الأرض الواسعة العظيمة الخلق.

ويبين تعالى مظهراً من مظاهر قدرته الظاهرة للعيان بأن جعل لهم الأرض ذلولاً – مشتق من الذل وهو الهوان والانقياد - منقادة مطاوعة فمكن الانتفاع منها، وسهل الاستقرار عليها، وثبتها بالجبال، لينتفع بها الإنسان مع صلابة خلقها وذلك تشبيها بالدابة المسوسة، وهذه من أكبر النعم على الإنسان ومن أعظم الدلائل والبراهين على قدرة الله الملك العظيم[١].

وكما ذلَّل الله الأرض للإنسان وجعلها تنقاد له وينتفع بها فإن الواجب على المرء أن ينقاد ويذل لخالقه وسيده وهو الله الملك جلَّ في علاه.

ومن مظاهر القدرة أن المصير والمرجع إليه تعالى، فإذا علمت أن سيعيدك ويبعثك فأحسن معه وانقَدْ له واخضع لعظمته وملكه، فمن يقدر على هذا كله من الملوك غيره تبارك وتعالى !

"إن الناس لطول ألفتهم لحياتهم على هذه الأرض، وسهولة استقرارهم

(١) انظر: أضواء البيان مع التتمة: (٤٠٣/٨)، التحرير والتنوير: (٢٩/٢٩).

عليها، وسيرهم فيها، واستغلالهم لتربتها ومائها وهوائها وكنوزها وقواها وأرزاقها جميعاً، ينسون نعمة الله في تذليلها لهم وتسخيرها، والقرآن يذكرهم هذه النعمة الهائلة، ويبصرهم بها، في هذا التعبير الذي يدرك منه كل أحد وكل جيل بقدر ما ينكشف له من علم هذه الأرض الذلول.

والأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى هذه الأرض المذللة للسير فيها بالقدم وعلى الدابة، وبالفلك التي تمخر البحار، والمذللة للزرع والجني والحصاد، والمذللة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة تصلح للزرع والإنبات.

وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم فيما اهتدى إليه حتى اليوم تفصيلاً يمد في مساحة النص القرآني في الإدراك"(١).

وكلمة (ذلول) على وزن (فعول) بمعنى (مفعول) أي: مذلول، وهي مبالغة في الذل، تقول: دابة ذلول بينة الذل، وهي إشارة على تمكين الانتفاع منها(٢)، "وهذا الوصف الذي يطلق عادة على الدابة مقصود في إطلاقه على الأرض، فالأرض هذه التي نراها ثابتة مستقرة ساكنة، هي دابة متحركة، بل رامحة راكضة مهطعة !! وهي في الوقت ذاته ذلول لا تلقي براكبها عن ظهرها، ولا تتعثر خطاها، ولا تخضه وتهزه وترهقه كالدابة غير الذلول ! ثم هي دابة حلوب مثلما هي ذلول...

والنص القرآني يشير إلى هذه الحقائق ليعيها كل فرد وكل جيل بالقدر الذي يطيق، وبالقدر الذي يبلغ إليه علمه وملاحظته، ليشعر بيد الله – الذي بيده الملك – وهي تتولاه وتتولى كل شيء حوله، وتذلل له الأرض، وتحفظه

---

(١) في ظلال القرآن: (٣٦٣٧/٨).

(٢) انظر: المحرر الوجيز: (٣٤١/٥)، أضواء البيان مع التتمة: (٤٠٣/٨).

وتحفظها، ولو تراخت لحظة واحدة عن الحفظ لاختل هذا الكون كله وتحطم بمن عليه وما عليه!

فإذا استيقظ ضميره لهذه الحقيقة الهائلة أذن له الخالق الرحمن الرحيم بالمشي في مناكبها والأكل من رزقه فيها: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ "[١]، وهذا " امتنان من الله تعالى على خلقه مما يشعر أن هذا الأمر مع الإباحة توجيها وحثا للأمة على السعي والعمل والجد، والمشي في مناكب الأرض من كل جانب لتسخيرها وتذليلها، مما يجعل الأمة أحق بها من غيرها"[٢].

والمناكب المرتفعات أو الجوانب، والمشي في مناكبها: مثل لفرط التذليل ومجاوزته الغاية،" فإذا جعل الذّل بحيث يمشي في مناكبها لم يترك شيئا منها إلا قد ذلّله، وهذا أبلغ التذليل "[٣].

"وإذا أذن له بالمشي في مناكبها فقد أذن له بالمشي في سهولها وبطاحها من باب أولى. والرزق الذي فيها كله من خلقه، وكله من ملكه، وهو أوسع مدلولاً مما يتبادر إلى أذهان الناس من كلمة الرزق، فليس هو المال الذي يجده أحدهم في يده، ليحصل به على حاجياته ومتاعه، إنما هو كل ما أودعه الله هذه الأرض، من أسباب الرزق ومكوناته "[٤].

إن من مظاهر قدرته التي جاءت في السورة أنه بث الأرزاق على هذه الأرض، فلا تشتغل به كثيرا دون ما خلقت له وهو التسليم والخضوع للملك

(١) في ظلال القرآن: (٣٦٣٧/٨).

(٢) أضواء البيان مع التتمة: (٤٠٤/٨).

(٣) الكشاف: (٥٦٨/٤)، بتصرف يسير. وانظر: معاني القرآن، للزجاج: (١٩٩/٥).

(٤) في ظلال القرآن: (٣٦٣٨/٨).

الجبار، ولذا أمر بالمشي على الأرض، لأن الرزق مقسوم مكتوب، وهذا من مظاهر قدرته جل وعلا فهو خلق الأرض وذلّلها للإنسان، وقسم لكل واحد منها رزقه فلن يفلت منه أو يضيع، وإنما المطلوب المشي للوصول إلى الرزق[1]!

" والقرآن وضع الأمة الإسلامية في أعز مواضع الغنى، والاستغناء والاستثمار والإنتاج، فما نقص عليها من أمور دنياها إلا بقدر ما قصرت هي في القيام بهذا العمل وأضاعت من حقها في هذا الوجود... وإن على الأمة الإسلامية أن تعمل على استثمار وإنتاج كل حاجياتها، حتى الإبرة لتستغني عن غيرها، وإلا احتاجت إلى الغير بقدر ما قصرت في الإنتاج، وهذا واقع العالم اليوم، إذ القدرة الإنتاجية هي المتحكمة وذات السيادة الدولية "[2].

وبعد الابتلاء في الدنيا والمشي في مناكب الأرض وتطلب الرزق وما يتضمن من النظر والتأمل في مسببات الأسباب وتسخير الله لها تختم الآية: (وإليه النشور) فالبعث يكون من الأرض كما كان أول الخلق منها، وفي مشاهد الأرض وما فيها من دلائل القدرة ما يدعوا إلى التسليم والانقياد لله تعالى والإيمان بيوم البعث والنشور، ولا شك أن هذا مظهر عظيم من مظاهر من بيده الملك وهو على كل شيء قدير[3].

❋ ❋ ❋

(١) انظر: المحرر الوجيز: (٣٤١/٥)، في ظلال القرآن: (٣٦٣٧/٦)، أضواء البيان مع التتمة: (٤٠٣/٨).

(٢) أضواء البيان مع التتمة: (٤٠٦/٨)، بتصرف يسير.

(٣) انظر: أضواء البيان مع التتمة: (٤٠٥/٨)، التحرير والتنوير: (٣٠/٢٨).

المطلب السابع

علو الله تعالى على خلقه والتهديد بالخسف والحاصب

قال تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[الملك/١٦ – ١٨].

إن من مظاهر كمال هذا الملك وقدرته جل وعلا أنه في السماء، وكنى عن نفسه بهذا، لأن المقام مقام إظهار لعظمته، وأنه فوقكم، قادر عليكم، مسيطر عليكم، مهيمن عليكم، لأن العالي له سلطة على من تحته(١)، والمناسبة ظاهرة بذكر الخسف للأرض الذلول فهو الذي خلق، وهو الذي يخسف ويزلزل، وهو على كل شيء قدير.

" بينما الناس في هذا الأمان على ظهر الأرض الذلول، وفي هذا اليسر الفائض بإذن الله وأمره، الآن يهز هذه الأرض الساكنة من تحت أقدامهم هزاً، ويرجها رجاً فإذا هي تمور.

ويثير الجو من حولهم فإذا هو حاصب يضرب الوجوه والصدور، يهز هذه الأرض في حسهم ويثير هذا الحاصب في تصورهم، لينتبهوا من غفلة الأمان والقرار، ويمدوا بأبصارهم إلى السماء وإلى الغيب، ويعلقوا قلوبهم بقدرة الله: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ "(٢).

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين: (٣٩٦/١).

(٢) في ظلال القرآن: (٣٦٤٠/٨).

وهنا استفهامات، الأول إنكار على أمنهم الذي في السماء من أن يفعل فعلاً أرضياً، والثاني بعد (أم) إنكار عليهم أن يأمنوا من أن يرسل عليهم من السماء حاصباً وذلك أمكن لمن في الأرض وأشد وقعا على أهل الأرض، والثالث في(فستعلمون) استفهام للتهديد والتهويل !

وقدم التهديد بالخسف على التهديد بالحاصب، لأن الخسف من أحوال الأرض التي يعيشون عليها[1].

ولك أن تتأمل في مظهر عظيم من مظاهر قدرة الله وملكه في هذا الكون إنه التهديد والوعيد بأن يخسف الله بالناس هذه الأرض التي جعلها لهم ذلولاً يمشون في مناكبها ويأكلون من رزق الله فيها، ثم بلا سابق إنذار أو إعلام ترتج بهم وتتزلزل من تحت أرجلهم في مشهد عظيم يخلع القلوب، لشدة الهول والمصاب فإذ بالأرض غير الأرض...تحركت اضطربت تزلزلت فيتحطم كل شيء عليها مما بناه الإنسان وعمره،بل الإنسان في هذا الموقف لا يفكر في شيء بقدر ما يفكر في النجاة من هذا الأمر العظيم والخطب الجسيم. إن هذه الحركة للأرض إنما هي بأمر الله تعالى الذي خلقها وأوجدها وأسكنها بقوته، ما هذا العذاب العظيم من تزلزل الأرض وتحركها إلا إنذار من الله لسكانها، ليعلموا أن لهذا الكون وهذه الأرض خالق، وهو الله جلفي علاه، فيعبدوه ويوحدوه ويصرفوا له العبادة سبحانه وتعالى من إله عظيم.

"(فستعلمون كيف نذير) يضرب لهم الأمثلة من واقع البشرية، ومن وقائع الغابرين المكذبين: (ولقد كذب الذين من قبلهم فكيف كان نكير).

والنكير الإنكار وما يتبعه من الآثار، ولقد أنكر الله ممن كذبوا قبلهم أن يكذبوا، وهو يسألهم: (فكيف كان نكير) وهم يعلمون كيف كان، فقد

(١) انظر: التحرير والتنوير: (٢٩/٣٣).

كانت آثار الدمار والخراب تصف لهم كيف كان هذا النكير ! وكيف كان ما أعقبه من تدمير!

والأمان الذي ينكره الله على الناس، هو الأمان الذي يوحي بالغفلة عن الله وقدرته وقدره، وليس هو الاطمئنان إلى الله ورعايته ورحمته، فهذا غير ذاك، فالمؤمن يطمئن إلى ربه، ويرجو رحمته وفضله، ولكن هذا لا يقوده إلى الغفلة والنسيان والانغمار في غمرة الأرض ومتاعها، إنما يدعوه إلى التطلع الدائم، والحياء من الله، والحذر من غضبه، والتوقي من المخبوء في قدره، مع الإخبات والاطمئنان.

عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: « ما رأيت رسول الله ﷺ مستجمعاً ضاحكاً حتى أرى منه لهواته. إنما كان يبتسم. وقالت: كان رسول الله ﷺ إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه. قالت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت في وجهك الكراهية. فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح. وقد رأى قوم العذاب وقالوا، هذا عارض ممطرنا »(1).

فهذا هو الإحساس اليقظ الدائم بالله وقدره، وبما قصه القرآن من هذا في سيره، وهو لا ينافي الاطمئنان إلى رحمة الله وتوقع فضله.

ثم هو إرجاع جميع الأسباب الظاهرة إلى السبب الأول، ورد الأمر بحاله

---

(١) رواه البخاري، كتاب التفسير، باب قوله (فلما رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم) (١٨٢٧/٤)، ومسلم، كتاب صلاة الاستسقاء، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم والفرح بالمطر (٦١٦/٢). ومعنى لهواته: جمع لهاة وهي اللحمة المتعلقة في أعلى الحنك من أقصى الفم وتُرى عند الضحك الشديد.انظر: مشارق الأنوار ٣٦٣/١.

وكلّيته إلى من بيده الملك وهو على كل شيء قدير، فالخسف والحاصب والبراكين والزلازل والعواصف وسائر القوى الكونية والظواهر الطبيعية ليس في أيدي البشر من أمرها شيء، إنما أمرها إلى الله...فأولى للبشر أن يتوجهوا في أمرها إلى خالق هذا الكون، ومنشئ نواميسه التي تحكم هذه الظواهر، ومودعه القوى التي يتجلى جانب منها في هذه الأحداث، وأن يتطلعوا إلى السماء حيث هي رمز للعلو فيتذكروا الله الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير.

إن الإنسان قوي بالقدر الذي وهبه الله من القوة، عالم بالقدر الذي أعطاه الله من العلم ولكن هذا الكون الهائل زمامه في يد خالقه، ونواميسه من صنعه، وقواه من إمداده، وهذه القوى تسير وفق نواميسه في حدود قدره، وما يصيب الإنسان منها مقدور مرسوم، وما يعلمه الإنسان منها مقدور معلوم، والوقائع التي تحدث تقف هذا الإنسان بين الحين والحين أمام قوى الكون الهائلة مكتوف اليدين حسيراً، ليس له إلا أن يتذكر خالق هذه القوى ومروضها، وإلا أن يتطلع إلى عونه ليواجهها، ويسخر ما هو مقدور له أن يسخره منها..."[(١)].

إن قرار الأرض وجعلها ذلولاً للإنسان هو مظهر من مظاهر قدرة الله وعظمته سبحانه وتعالى، وعلامة على ملك الله سبحانه وتعالى فهو الخالق لهذه الأرض المالك لها المتصرف فيها كيف شاء ومتى شاء، هو من جعلها لينة سهلة ذلولة، وقدر فيها الأرزاق لكل من على ظهرها، وفي نفس الوقت قادر على أن يحركها أن يزلزلها متى شاء سبحانه وتعالى، إن منظرها وهي تضطرب وتتحرك وتتزلزل بمن عليها لهو مظهر آخر من مظاهر القدرة والملك له

(١) في ظلال القرآن: (٦/٣٦٣٨). (بتصرف يسير)

سبحانه وتعالى، ويدل على عظمة الخالق جلَّ في علاه الذي يمسك هذه الذلول من أن تتحرك أو تضطرب إلا بإذنه، إن كل هذا يقود إلى التسليم والإيمان والانقياد والخضوع لله الملك الواحد القهار!

* * *

المطلب الثامن

إمساك الطير في السماء

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [الملك/١٩].

هذا انتقال إلى مظهر جديد من مظاهر الملك والقدرة، ومشهد لا يغيب عن الإنسان كل يوم، إنه مظهر من مظاهر القدرة، وأثر من آثار الملك سبحانه وتعالى، إن جميع الدواب تمشي على الأرض بما فيها الطير فإذا طار الطائر انتقل إلى حالة عجيبة مخالفة لبقية المخلوقات.

إن هذه الحالة العجيبة التي تقع في كل لحظة، تنسينا بوقوعها المتكرر، ما تشير به من القدرة والعظمة، " تأمل هذا الطير، وهو يصف جناحيه ويفردهما، ثم يقبضهما ويضمهما، وهو في الحالين: حالة الصف الغالبة، وحالة القبض العارضة يظل في الهواء يسبح فيه سباحة في يسر وسهولة، ويأتي بحركات يخيل إلى الناظر أحياناً أنها حركات استعراضية لجمال التحليق والانقضاض والارتفاع !

تأمل هذا المشهد، ومتابعة كل نوع من الطير في حركاته الخاصة بنوعه، لا يمله النظر، ولا يمله القلب، وهو متعة فوق ما هو مثار تفكير وتدبر في صنع الله البديع، الذي يتعانق فيه الكمال والجمال.... والقرآن يدعو إلى النظر لهذا المشهد المثير: (أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن) "[1].

وتأمل قوله تعالى في وصف الطير بـــ(صافات) بصيغة الاسم، لأن

---

(١) في ظلال القرآن: (٦/٣٦٤٢).

الصف هو أكثر أحوالها عند الطيران فناسبه الاسم الدال على الثبات، وجيء في وصفهن بالقبض بصيغة المضارع لدلالة الفعل على التجدد، أي: ويجددن قبض أجنحتهن في خلال الطيران للاستعانة بقبض الأجنحة على زيادة التحرك عندما يَحسسن بتغلب جاذبية الأرض على حركات الطيران[١] فسبحان الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

(ما يمسكهن إلاّ الرحمن) أي: ومن رحمانيته: لطفه بالطير وتسخير الهواء لها، وإمساكه إياها صافات وقابضات في جو السماء، والجملة مبينة لجملة: (أو لم يروا إلى الطير) وما فيها من استفهام إنكار، أي: كان حقهم أن يعلموا أنه ما يُمسكُهن إلاّ الرحمن إذ لا ممسك لها ترونه، كقوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ ﴾[الحج/٦٥][٢].

قال الزمخشري: " فإن قلت: لم قيل: (ويقبضن) و لم يقل: وقابضات ؟ قلت: لأن الأصل في الطيران هو صف الأجنحة، لأنّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مدّ الأطراف وبسطها، وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طار غير أصل بلفظ الفعل، على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح "[٣].

" وفي الآية إيماء إلى أن الذي أمسك الطير عن الهُوِيّ المفضي إلى الهلاك هو الذي أهلك الأمم الذين من قبلِ هؤلاء فلو لم يشركوا به، ولو استعصموا بطاعته لأنجاهم من الهلاك كما أنجى الطيْر من الهُوِيّ "[٤].

---

(١) التحرير والتنوير: (٣٦/٢٨).

(٢) انظر: أضواء البيان، مع التتمة: (٤٠/١)، التحرير والتنوير: (٣٧/٢٨).

(٣) الكشاف: (٥٦٨/٤).

(٤) التحرير والتنوير: (٣٧/٢٨).

"إن إمساك الطير في الجو كإمساك الدواب على الأرض الطائرة بما عليها في الفضاء، كإمساك سائر الأجرام التي لا يمسكها في مكانها إلا الله، ولكن القرآن يأخذ بأبصار القوم وقلوبهم إلى كل مشهد يملكون رؤيته وإدراكه، ويلمس قلوبهم بإيحاءاته وإيقاعاته. وإلا فصنعة الله كلها إعجاز وكلها إبداع، وكلها إيحاء وكلها إيقاع، وكل قلب وكل جيل يدرك منها ما يطيقه، ويلحظ منها ما يراه، حسب توفيق الله "(١).

" ومما يستدعي الانتباه كذلك توجيه النظر إلى الطير في الهواء: (صافات ويقبض ما يمسكهن إلا الرحمن) بعد التخويف بخسف الأرض، إشارة بأن الأرض معلقة في الهواء كتعلق الطير المشاهد إليكم ما يمسكها إلا الله، وإيقاع الخسف بها، كإسقاط الطير من الهواء، لأن الجميع ما يمسكه إلا الله، وهو القادر على الخسف بها، وعلى إسقاط الطير "(٢).

ومعنى إمساك الله للطير: حفظها من السقوط على الأرض بما أودع في خلقتها من الخصائص في خفة عظامها وقوة حركة الجوانح وما جعل لهن من القوادم، وأمسكهن سبحانه لعموم علمه وحكمته فهو بكل شيء بصير، أي: بما يصلح كل شيء من مخلوقاته(٣).

وفي الآية كذلك مناسبة ظاهرة لما قبلها من الآيات فكما جعل الأرض ميسرة مذلّلة لبني الإنسان وسائر المخلوقات يمشون فيها وهي فسيحة واسعة فكذلك جعل تعالى الفضاء الواسع لتحلق فيه الطير بأمر الله وحفظه لها من السقوط.

---

(١) في ظلال القرآن: (٣٦٤٣/٦).

(٢) أضواء البيان مع التتمة: (٤١٠/٨).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم: (٣٣٤/٧)، إرشاد العقل السليم: (٣٧٠/٦)، نظم الدرر: (٢٠/ ٢٣٢)، التحرير والتنوير: (٣٧/٢٩).

وإذا أمعنت النظر قليلا في ما وهب الله هذه الطيور من إلهام غريزي، لترى عجباً وقدرة من الخالق سبحانه وتعالى، فأنت ترى الطيور تختفي كلياً في الخريف وتظهر في الربيع، بل هناك عشرات الألوف من الطيور تهاجر كل عام، وهناك طيور تقطع المسافات الطويلة جداً جداً فتصل إلى حوالي أربعة عشر ألف كيلو متر ! بل تصل إلى اثنين وعشرين ألف كيلو متر !! وبعض الطيور تسير وبدون توقف حوالي العشرين ساعة ! وتحلق في الجو على ارتفاع شاهق يصل إلى ستة آلاف متر ! تهاجر في موعد محدد ! وتخزن دهونا في جسمها لقطع هذه المسافات ! وتصل إلى هدفها بدون انحراف أو ضياع ! والعجب أن هذه الرحلة ليست على خط واحد ! وصغار الطيور تنطلق إلى الهدف دون تعليم من الكبار...[1] ؟

فيتسأل الإنسان من الذي ألهمها؟ من الذي علمها ؟ من الذي أرشدها؟ من الذي أمسكها ؟ إنه الله جلَّ وعلا المستحق للعبادة الذي بيده كل شيء وهو على كل شيء قدير الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى، إنه مظهر من مظاهر قدرة الله تبارك وتعالى، مما يستوجب الإيمان به والتسليم له سبحانه وتعالى.

* * *

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي: (٤٨٥).

المطلب التاسع

إظهار قدرة الله تعالى وغلبته، والتهديد بإمساك الرزق

قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ۚ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك/٢٠ - ٢٢].

لازال الحديث ينتقل من بيان إلى بيان لإظهار قدرة الملك جلَّ وعلا في هذا الكون فها هو ذا "يلمس قلوبهم لمسة أخرى تعود بهم إلى مشهد البأس والفزع من الخسف والحاصب، بعد أن جال بهم هذه الجولة مع الطير السابح الآمن، فيردد قلوبهم بين شتى اللمسات عوداً وبدءاً كما يعلم الله من أثر هذا الترداد في قلوب العباد: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾[الملك/٢٠].

وقد خوفهم الخسف، خوفهم الحاصب، وذكرهم مصائر الغابرين الذين أنكر الله عليهم فأصابهم التدمير. فهو يعود ليسألهم سؤالا فيه تبكيت وتوبيخ: (أمَّن) من هو هذا الذي ينصرهم ويحميهم من الله، غير الله ؟ من هو هذا الذي يدفع عنهم بأس الرحمن إلا الرحمن ؟" [(١)].

"ونبه تعالى على أن المدبر للأشياء لا بد أن يكون في غاية القرب والشهادة لها ليكون بصيراً برعيها، ويكون مع مزيد قربه عالي الرتبة بحيث يشار إليه، فقال مقرراً لعجز العباد: (هذا) بإشارة الحاضر(الذي) وأبرز العائد، لأنه لا بد من إبرازه مع الاسم بعدم صلاحه لتحمل الضمير،

(١) في ظلال القرآن: (٦/٣٦٤٣). (بتصرف يسير).

فقال:(هو جند) أي: عسكر وعون، وصرف القول عن الغيبة إلى الخطاب، لأنه أبلغ في التقريع فقال: (لكم ينصركم) أي: على من يقصدكم بالخسف والحصب وغيرهما.

ما أعظم رحمة هذا الملك بالعباد، فهم يعصونه ويكفرون به ومع ذلك فهو رحمن بهم، ولولا حلمه ورحمته لأهلكهم فخسف بهم الأرض أو أرسل عليهم الحاصب "[١].

" (إن الكافرون إلا في غرور) غرور يهيئ لهم أنهم في أمن وفي حماية وفي اطمئنان، وهم يتعرضون لغضب الرحمن وبأس الرحمن، بلا شفاعة لهم من إيمان ولا عمل يستترل رحمة الرحمن"[٢].

وقوله: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ [الملك/٢١]، تأمل هذا المظهر من مظاهر الملك القادر الذي لا يعجزه شيء، فهو خلق كل المخلوقات وتكفل برزقها، فمن يرزقكم إن أمسك رزقه عنكم؟

والجواب: لا أحد يقدر على ذلك ولا يملكه إلا الله.

" وفي هذه الآية لمسة أخرى في الرزق الذي يستمتعون به، وينسون مصدره، ثم لا يخشون ذهابه، ثم يلجون في التبجح والإعراض: ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾، رزق البشر كله -كما سلف- معقود بإرادة الله في أول أسبابه، في تصميم هذا الكون وفي عناصر الأرض والجو، وهي أسباب لا قدرة للبشر عليها إطلاقاً، ولا تتعلق بعملهم بتاتاً فهي

(١) نظم الدرر: (٢٣١/٢٠).

(٢) في ظلال القرآن: (٣٦٤٣/٦)، وانظر: إرشاد العقل السليم: (٣٧٠/٦)، التحرير والتنوير: (٣٨/٢٩).

أسبق منهم في الوجود، وهي أكبر منهم في الطاقة، وهي أقدر منهم على محو كل أثر للحياة حين يشاء الله.

فمن يرزق البشر إن أمسك الماء، أو أمسك الهواء، أو أمسك العناصر الأولى التي منها ينشأ وجود الأشياء ؟

إن مدلول الرزق أوسع مدى وأقدم عهداً وأعمق جذوراً مما يتبادر إلى الذهن عندما يسمع هذه الكلمة، ومرد كل صغيرة وكبيرة فيه إلى قدرة الله وقدره، وإرساله للأسباب وإمساكها حين يشاء.

وفي هذا المدلول الكبير الواسع العميق تنطوي سائر المدلولات القريبة لكلمة الرزق، مما يتوهم الإنسان أنها من كسبه وفي طوقه، كالعمل والإبداع والإنتاج... وكلها مرتبطة بقيام الأسباب والعناصر الأولى من جهة ومتوقفة على هبة الله للأفراد والأمم من جهة أخرى، فأي نفس يتنفسه العامل، وأي حركة يتحركها، إلا من رزق الله، الذي أنشأه، ومنحه المقدرة والطاقة، وخلق له النفس الذي يتنفسه، والمادة التي تحترق في جسده فتمنحه القدرة على الحركة ؟

أي جهد عقلي يبذله مخترع إلا وهو من رزق الله الذي منحه القدرة على التفكير والإبداع ؟

أي إنتاج ينتجه عامل، أو مبدع إلا في المادة التي أنتجها صنع الله ابتداء، أو بأسباب كونية وإنسانية هي من رزق الله أصلاً؟ ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾.

﴿ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ وأقبح العتو والنفور، والتبجح والتصعير، ما يقع من العيال في مواجهة المطعم الكاسي، الرازق العائل وهم خلو من كل شيء إلا ما يتفضل به عليهم، وهم بعد ذلك عاتون معرضون... وهو تصوير

لحقيقة النفوس التي تعرض عن الدعوة إلى الله في طغيان عات، وفي إعــراض نافر، وتنسى أنها من صنع الله، وأنها تعيش على فضله، وأنها لا تملك من أمر وجودها وحياتها ورزقها شيئاً على الإطلاق "[١].

وتأمل النعمة العظيمة من الله في تجدد الرزق واستمراره وعدم انقطاعه مع إصرارهم على الكفر والعناد وعدم التسليم له فقال: (يرزقكم) أي: على سبيل التجدد والاستمرار لا ينقطع معروفه أبدا.

إن هذا الفعل ليدل دلالة على أن الرزق بيد الخلّاق المستحق للعبادة سبحانه وتعالى، وإيجاد الرزق وتجدده للكائنات مظهر من مظاهر القدرة لهذا الملك العظيم، فإذا عرف ذلك العبد لن يتوجه برغبة ولا بسؤال إلا إلى الله تبارك وتعالى[٢].

إن فعلهم وما حصل منهم من عتو ونفور فعل من لا بصر له ولا بصيرة فجاءت الآية لتبين حالة المؤمن بالله وحالة المشرك في طريقيهما فقال: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الملك/٢٢]، مستمراً يسير في طريق مجهول، وأثر معوج معلول على غير عادة العقــلاء لخلـــل في أعضائه واضطراب في عقله ورأيه فهو يعثر في كل حين على وجهه، هـــذه حالة الشقي الضال عن طريق الله المحروم من هداه، فهو دائما في تعثر، وأبدا في عناء، أبدا في ضلال.

وفي المقابل تجد من هو يمشي مستمراً يسير في طريق واضح بين على نور من الله وهداية قائما سالما من التعثر والتخبط.

---

(١) في ظلال القرآن: (٣٦٤٣/٦).

(٢) انظر: في ظلال القرآن: (٣٦٤٣/٦)، أضواء البيان مع التتمــة: (٤١١/٨)، التحريــر والتنوير: (٤٠/٢٩).

المطلب العاشر

الإنشاء وهبة السمع والأبصار والأفئدة

قال تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾[الملك/٢٣].

لا زال الكلام يتوجه إلى بيان قدرة الملك جلَّ وعلا إذ من قدرته أنه أنشأ الإنسان وأوجده من العدم بعد أن لم يكن شيئا، أنشأ الإنسان وجعل فيه من مظاهر قدرته وعظمته جل وعلا ما لا يخفى، فجعل له السمع ليسمع الحق الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم وهو توحيد الله وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له، والسمع نعمة عظيمة ومظهر من مظاهر قدرته تبارك وتعالى.

وجعل له كذلك البصر ليبصر ما حوله من الآيات الدالة على وحدانيته سبحانه وتعالى وقدرته في هذا الكون وما فيه من الآيات والنذر.

وجعل للمرء كذلك القلوب، والمراد بها العقول فبها تدركون وتتفكرون فيما ترونه من الآيات التي ترشدكم إلى الإيمان بالخالق وأنه مستحق للعبادة، فهل أصنامكم هي التي أوجدت لكم هذه النعم ؟

" والسمع والأبصار معجزتان كبيرتان عرف عنهما بعض خواصهما العجيبة. والأفئدة التي يعبر بها القرآن عن قوة الإدراك والمعرفة، معجزة أعجب وأغرب، ولم يعرف بعد عنها إلا القليل، وهي سر الله في هذا المخلوق الفريد"[1].

وقد وردت كلمة السمع ومشتقاتها في القرآن خمس وثمانون ومائة

---

(١) في ظلال القرآن: (٦/٣٦٤٥).

(١٨٥) مرة، ووردت كلمة (البصر) ومشتقاتها في القرآن ثمان وأربعون ومائة (١٤٨) مرة.

وحيثما وردت كلمة السمع في القرآن قصد بها دائما سماع الكلام والأصوات، بينما لم يقصد بكلمة البصر رؤية الضوء إلا في ثمان وثمانون(٨٨) مرة، وفي الباقي دلت على التبصر العقلي والفكري في ظواهر الكون والحياة أو فيما يتلقاه المرء أو يسمعه من آيات وأقوال كما في هذه السورة! وترافقت كلمتا (السمع) و(البصر) في ثمان وثلاثون (٣٨) آية في القرآن(١).

وتأمل في قدرة الله في خلق السمع والبصر وما فيهما من مظاهر القدرة والملك له سبحانه وتعالى، ومع ما وصل إليه العلم الحديث من بيان تركيب هذه الآية العظيمة-السمع والبصر- فلا يزال العقل البشري قاصر على أن يحيط بهما علماً مع أنه من حواسه التي لا يستغني عنها...وما ذاك إلا دليل على عظمة الله وأنه الخالق العظيم المستحق للعبادة والخضوع له...

" وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن معجزتي السمع والبصر نذكر منها لمحة: تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية، ولا يعلم إلا الله أين تنتهي. ويقول العلم: إن الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأّذن، التي تنظم دخوله، ليقع على طبلة الأذن، وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن.

والتيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية ونصف مستديرة. وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس.

فما طول القوس منها وحجمها؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ

---

(١) انظر: موسوعة الإعجاز العلمي: (١٧٤- ١٨٤).

عدة آلاف كل منها تركيباً خاصاً؟ وما الحيز الذي وضعت فيه؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة.

هذا كله في التيه الذي لا يكاد يرى ! وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية. وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة. دقة وعظمة تحير الألباب !

ومركز حاسة الإبصار العين، التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء وهي أطراف أعصاب الإبصار، وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية، وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية.

وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات. ويقال: إن عدد الأولى ثلاثون مليون عود، وعدد الثانية ثلاثة ملايين مخروط. وقد نظمت كلها في تناسب محكم بالنسبة لبعضها البعض وبالنسبة للعدسات. وعدسة عينيك تختلف في الكثافة، ولذا تجمع كل الأشعة في بؤرة، ولا يحصل الإنسان على مثل ذلك في أية مادة من جنس واحد كالزجاج مثلاً.

فأما الأفئدة فهي هذه الخاصية التي صار بها الإنسان إنساناً، وهي قوة الإدراك والتمييز والمعرفة التي استخلف بها الإنسان في هذا الملك العريض، والتي حمل بها الأمانة التي أشفقت من حملها السماوات والأرض والجبال "[1].

إن هذا الخلق لهذه الأعضاء ليدل دلالة أكيدة على مظهر من مظاهر القدرة للملك سبحانه وتعالى وأنه مستحق للعبادة جلَّ وعلا.

وتقديم السمع على البصر لم يكن لصدفة عابرة بغير قصد، إنما هو إعجاز رباني، ليدل على قدرة الملك العظيم الذي يستحق العبادة وهو الله

(١) في ظلال القرآن: (٦/٣٦٤٦)، وانظر للاستزادة: موسوعة الإعجاز العلمي: (١٧٤).

سبحانه وتعالى، وقد اكتشف العلم الحديث أموراً علها أن ترشدنا إلى ذلك:

أن وظيفة السمع تتطور وتنضج قبل الثانية، وأن السمع أهم في التعلم والتعليم وأعمق رسوخا في الذاكرة، أن فقد الإحساس بالسماع يأتي بعد فقد الإحساس البصر، وأن الإنسان يسمع من كل الاتجاهات والزوايا بينما الساحة البصرية للإنسان أقل من ذلك.

أن المحيط الأول للمجتمع الذي نزل عليه القرآن تميز بطبيعة سمعية أكثر منها بصرية، فليس في الصحاري أي منبهات بصرية بقدر ما فيها من منبهات سمعية، كما أن المجتمع في ذلك العصر مجتمعا سمعياً أكثر منه بصرياً فالآيات كانت تسمع وتحفظ في الصدور.

وبما أنهم لم يعملوا أسماعهم وأبصارهم وعقولهم وهم قد مشوا مكبين على وجوههم فهم لا يشكرون هذه النعم ولا يستخدمونها فيما خلقت له، فكرر لهم القول تكريراً يشعر بالاهتمام المسوق فيه تلك الأقوال فيبين أنه هو الذي أكثرهم وبثهم وأسبغ عليهم نعمه المتتابعة، وبين أن المصير إليه تعالى وذلك بأن يأخذهم بالموت الذي علموا أنه لابد منه، ويصيرهم إلى الحشر، إن هذا الأمر من الحواس السابقة والحشر والنشر لهو مظهر من مظاهر قدرة الملك الذي يستحق العبادة والتسليم له والخضوع[1].

* * *

(١) انظر: نظم الدرر: (٢٠/٢٣٥)، التحرير والتنوير: (٢٨/٤٥)، موسوعة الإعجاز العلمي: (١٧٤- ١٨٤)، بتصرف.

المطلب الحادي عشر

الذرء في الأرض والحشر، والاختصاص بعلم الآخرة:

بعد أن بين سبحانه مظاهر عدة لقدرته وعظمته في الكون، فها هي الآيات تبين مظهر من مظاهر قدرته وعظمته في الإنسان...نعم في الإنسان!! فهو جلَّ وعلا خلقه وأبدعه على غير مثال، وجعل فيه من آيات القدرة والعظمة ما لا يخفى على ذي عقل، بل وكثرهم ونشرهم في الأرض، فقال (قل هو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون).

وفي الآية كذلك ذكر لمظهر عظيم من مظاهر قدرته وملكه سبحانه وتعالى وهو القدرة على الإعادة والحشر والنشر، وأنه قادر على إعادته مرة أخرى للحساب والعقاب، ولما كانت القدرة على الخلق ابتداءً توجب القدرة على الإعادة جاء السياق القرآني في السورة مبيناً ذلك، فقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الملك/٢٤ – ٢٩].

وفي الآية توبيخ للمشركين على كفرهم نعمة الله تعالى وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده وأنه وشيك الوقوع بهم.

فتأمل في عنادهم وإصرارهم على التكذيب وعلى المشي قدما على وجوههم فلا زالوا في شك من حشرهم ونشرهم بعد ما رأوا من مظاهر القدرة ما يعجز عن بيانه البيان، ولذا حكى الله عنهم مقولتهم (ويقولون متى

هذا الوعد إن كنتم صادقين) لازالوا يجددون هذا القول تجديداً مستمراً استهزاء وتكذيباً، لازالوا يسألون سؤال الشاك المستريب، سؤال المماحك المتعنت، سؤال المتهكم، مستنجزين الوعد لأن من شأنه الوفاء، والحقيقة أن معرفة موعد هذا الوعد وميقاته لا تقدم ولا تؤخر، ولا علاقة لها بحقيقته، وهو أنه يوم الجزاء بعد الابتلاء، ويستوي بالقياس إليهم أن يجيء غداً أو أن يجيء بعد ملايين السنين فالمهم أنه آت، وأنهم محشورون فيه، وأنهم مجازون بما عملوا في الحياة، المهم أن يؤمنوا ويصدقوا بما جاء به القرآن من دلائل وحدانيته سبحانه وتعالى.

فيأتي الجواب يتحدث عن وقت الموعد بما يدل على مظهر من مظاهر الملك وتمام القدرة فهذا الموعد وقته لا يعلمه إلا الله لم يطلع عليه ملك مقرب أو نبي مرسل ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ مهمتي هي البيان والإنذار، أما العلم فهو عند من لا يخفى عليه شيء وهو على كل شيء قدير.

ثم يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ بما أن هذا اليوم آت قريب وأنه لابد من وقوعه فتأت الآية تصور حالهم في هذا اليوم وأنهم في غاية الذلة فيه وأنه قد ظهرت عليهم علامات الكآبة وغشيت وجوههم القتر والذل ويقابلوا بالتوبيخ والتقريع جزاء ما وبخوا رسوله وكذبوا بهذا اليوم... ويقال لهم هذا ما طلبتموه في الدنيا وكنتم تستعجلونه إنكارا وتوبيخا[1].

ثم يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى

---

(١) انظر: إرشاد العقل السليم: (٦/٣٦٣)، في ظلال القرآن ٦/٣٦٤٦، التحرير والتنوير: (٢٩/٤٧).

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

لقد كان الكفار يتمنون هلاك الرسول ومن معه من المؤمنين ليستريحوا من دعوتهم ومن نصحهم، فيأمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يبين لهم أن هذا الأمر إنما هو بيد الملك الذي تناهى في العظمة الذي يملك الحياة والموت، فهو الذي يهلك من شاء وينجي من شاء فليس المهم في نجاتنا أو إهلاكنا، المهم من يجير الكافرين من عذاب أليم ! استفهام إنكاري، أي: لا يجيرهم منه مجير.

ثم يبن لهم الرسول ﷺ أنه هو ومن معه من المؤمنين تعلقوا برحمن رحمته عظيمة وقد اتصلوا به بالإيمان به، والتوكل عليه، فلن يهلكهم كما تمنى هؤلاء، والوقت لازال فيه فسحة فراجعوا أنفسكم وعودوا إلى ربكم وآمنوا به، قبل أن تعلموا حقيقة من هو في ضلال مبين !

* * *

المطلب الثاني عشر

القدرة على إيجاد الماء والذهاب به

وهذا من دلائل وحدانية الله تعالى من لطيف صنعته في خلق الماء الذي جعله عز وجل حياة لجميع خلقه، قال تعـالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ [الملك/٣٠] ولا شك أن الجواب الصحيح: لا يقـدر على أن يأتينا به إلا الله وحده' وفي هذه الآية يأتي التهديد ملمحاً إلى عذابهم في الدنيا قبل عذاب الآخرة بالقحط وذهاب الماء بحيث لا تصله الدلاء، وهو استفهام إنكاري، أي: لا يأتيكم أحد بماء ظاهر قريب منكم، ومن يقدر على ذلك غير الله[1]؟

قال الفخر الرازي:" والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر، أي: أخبروني إن صار ماؤكم ذاهباً في الأرض (فمن يأتيكم بماء معين) فلا بد وأن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فَلِمَ تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكاً له في المعبودية، وهو كقوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة/٦٨، ٦٩] "[2].

ولا شك إن إنزال المطر وحفظه في الأرض، وإعانة الإنسان على

---

(١) انظر: في ظلال القرآن: (٣٦٤٨/٦)، أضواء البيان مع التتمـة: (٢٧٨/٣)، التحريـر والتنوير: (٥٢/٢٩).

(٢) مفاتيح الغيب: (٦٧/٣٠).

استخراج هذا الماء مظهر من مظاهر قدرة الله فهو الذي سخر للإنسان هذه النعم، ولو شاء سبحانه أن يسلب منه نعمة الماء التي بها حياته وقوامه، فلن يستطيع الإنسان مهما أوتي من قوة وقدرة أن يأت ولو بقطرة ماء، فما بقي إلا التسليم لله الملك القهار سبحانه وتعالى.

*   *   *

المبحث الثالث

الآثار الإيمانية في السورة

اشتملت سورة الملك على جملة وافرة من الآثار والمعاني الإيمانية التي إذا تشرب بها قلب المسلم كانت دافعا له نحو الخير والعمل الصالح، وتثمر زيادة في إيمانه وإقبالا على ربه واستجابة لأمره ونهيه، ولما كانت هذه الآثار كثيرة اقتصرت على ذكر بعضها في الآتي:

- تقرير ربوبية الله تعالى بعرض دلائل القدرة والعلم والحكمة والخير والبركة وهي موجبة لألوهيته وعبادته دون من سواه عز وجل[١].
- على المؤمن أن يوقن أنه لا مفزع له في الشدائد إلا إلى الله، ولا ملجأ له من الله إلا إليه، فلا ينبغي أن يُدعو، ولا يخاف، ولا يرجى، ولا يحب سواه، ولا يخضع لسواه، ولا يتوكل إلا عليه، لأن من ترجوه، وتخافه، وتدعوه، وتتوكل عليه إما أن يكون مربيك والقيم بأمورك ومتولي شأنك وهو ربك فلا رب سواه، أو تكون مملوكه وعبده الحق فهو ملك الناس حقاً وكلهم عبيده ومماليكه[٢].
- البركة كثرة الخير ودوامه، ولا أحد أحق بذلك وصفا وفعلا منه تبارك وتعالى[٣].
- الله عظيم بالغ القدرة لا يعجزه شيء من الأشياء يتصرف في ملكه كيف يريد من إنعام وانتقام ورفع ووضع وإعطاء ومنع[٤].

---

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير: (٥/٣٩٥).

(٢) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة: (١٦٥)، بدائع الفوائد: (٢/٢٤٩)

(٣) الضوء المنير على التفسير: (٦/١١٤).

(٤) فتح البيان في مقاصد القرآن: (١٤/٢٢٩).

- الموت والحياة من أعظم العوارض التي تعرض لجنس الإنسان، فتدل على عظمة الله جلَّ وعلا وكماله، وفيهما من الابتلاء ما لا يخفى، فالموت قهر للخلق والحياة نعمة، والابتلاء قد يكون بالشدة والمحنة، وقد يكون بإسباغ النعمة، والحياة نعمة يجب استغلالها في طاعة الله.
- الله تعالى عفو يحب العفو ويحب من عباده أن يسعوا في تحصيل الأسباب التي ينالون بها عفوه.
- أسباب نيل مغفرة الله كثيرة، ومنها: التوبة، والاستغفار، والإيمان، والعمل الصالح، والإحسان إلى عباد الله، والعفو عنهم، وقوة الطمع في فضل الله، وحسن الظن به.
- الله تعالى هو العزيز الغني بذاته، فلا يحتاج إلى أحد ولا يبلغ العباد ضره فيضرونه، ولا نفعه فينفعونه، وكل الكائنات مقهورة لله خاضعة لعظمته منقادة لإرادته، فجميع نواصي المخلوقات بيده، لا يتحرك منها متحرك ولا يتصرف متصرف إلا بحوله وقوته وإذنه.
- إن خلق السموات وما هي عليه من كمال وإتقان وحسن وبهاء لهو مظهر من مظاهر ملكه وقدرته - جلَّ وعلا - التي تستوجب الخضوع له، والانقياد لعظمته.
- النظر والتأمل في خلق السماوات من شأنه أن يهدى إلى الحق، ويرشد إلى الصواب.
- خلق الله سبع سماوات بعضها فوق بعض، مع تناسقها، وإتقان تكوينها، وإحكام صنعها.. بحيث لا نرى فيها شيئا من الاضطراب، يشعر بأن هذا الخلق البديع اقتضته رحمته تعالى بعباده، لكي تجرى أمورهم على حالة تلائم نظام معيشتهم، وللتنبيه على أن جميع

مخلوقاته تسير على هذا النمط البديع في صنعها وإيجادها [١].

- خلق السماء وتزيينها بالمصابيح دليل على وجود الخالق وكمال علمه وقدرته.
- امتنان الله على خلقه بتزيين السماء بالنجوم وتذليلها لهداية الناس فيشكرونه على نعمه.
- عدل الله في خلقه، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه.
- السعي في السبب لا ينافي التوكل على الله جلَّ وعلا.
- إثبات علو الله تعالى وأنه في السماء فوق عرشه سبحانه وتعالى.
- من لطف الله ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل.
- لا أحد يعطي ويمنع ويخلق ويرزق، وينصر إلا الله، عز وجلّ، وحده لا شريك له.
- المؤمن يحشر يمشي سويًا على صراط مستقيم، مُفض به إلى الجنة العالية، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم وبئس القرار.
- الاستدلال بالنشأة الأولى على البعث والنشور والحساب.
- علم الساعة عند الله وحده [٢].

---

(١) التفسير الوسيط للقرآن الكريم لطنطاوي ١٥/١٠.

(٢) المختصر في التفسير: (٥٦٣).

- مشروعية الحجاج بالنعم لإثبات الحق من قضايا التوحيد[1].
- انفراد الله تعالى بالنعم - وخصوصا الماء[2] - دليل على كمال قدرته ووحدانيته.
- على العباد أنّ يستعظموا النعمة في الماء، ويقيدوها بالشكر الدائم، ويخافوا نفادها إذا لم تشكر[3].
- وجوب الاعتماد على الله في كل حاجة من الحوائج[4].

* * *

(١) أيسر التفاسير لكلام العلي القدير: (٥/٤٠٥).
(٢) تيسير الكريم الرحمن: (٨٧٨).
(٣) الكشاف: (٣/١٨٣)، السراج المنير: (٢/٦٣٤).
(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان: (٦/٣٣١).

الخاتمة

لقد جاءت سورة الملك من أولها إلى آخرها تتحدث عن الملك الذي تفرد بالعظمة والقدرة والتمجيد، وإن التأمل في السورة وما فيها من مظاهر القدرة يقود إلى الخضوع والانقياد لله الملك العظيم، يقود إلى الإيمان والتسليم المطلق له جلَّ وعلا، والعجب كيف أن كفار قريش أعمتهم الجاهلية، وهم أهل فصاحة وبلاغة، عن الإذعان والتسليم لله الملك العظيم، وهم يسمعون هذه الآيات، ويشاهدون الدلائل والبراهين على قدرة الملك القدير، وهم يعلمون أن هذا الكلام كلام ربِّ العالمين، ولكن حالهم: (لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب الجحيم)، نعوذ بالله من أحوال أهل الجحيم.

أما **النتائج** فهي:

١. تفردت سورة الملك بخصيصة عظيمة دون غيرها من السور، وهي أنها تنجي صاحبها من عذاب القبر.
٢. المحور الرئيس لسورة الملك هو إثبات الملك والقدرة لله تعالى، وذلك يستلزم توحيده وإفراده بالعبادة.
٣. كل الموضوعات الفرعية في سورة الملك تصب في بيان المحور الرئيس للسورة، والكشف عن أبعاده ومراميه.
٤. معظم آيات السورة يمكن الاستدلال بها على إثبات قدرة الله ورحمته بخلقه.
٥. كثرة مظاهر القدرة والملك في هذه السورة المكية الكريمة.
٦. احتوت سورة الملك على أكثر من عشرة أسماء من أسماء الله الحسنى بعضها صريح وبعضها غير صريح.

التوصيات:

١. دراسة السورة القرآنية لاستخراج ما فيها من ترابط ووحدة موضوعية وآثار إيمانية وتربوية واجتماعية.

٢. العناية بقضايا العقيدة في السور القرآنية، وبيان آثارها في علاج الخلل السلوكي والعقدي للأفراد والمجتمعات.

٣. ربط دراسة السور القرآنية بالحقائق العلمية تعميقا للإيمان، ودعوة إلى الله تعالى.

* * *

المصادر والمراجع

-القرآن الكريم، طبعة مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف برواية حفص، وطبعة المجمع بروية ورش، وطبعة المجمع برواية الدوري.

١. الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: سعيد المندوب، دار الفكر -لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٢. الأحاديث المختارة، لضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسي، تحقيق: د. عبد الملك بن عبد الله دهيش، يطلب من مكتبة النهضة، مكة المكرمة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٣. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القران الكريم، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤. أسرار ترتيب القرآن، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.
٥. أسماء الله الحسنى في الكتاب والسنة، د. محمود عبد الرازق الرضواني، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٦. أسماء سور القرآن، د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، دار كنوز أشبيليا، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.
٧. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، وتتمته: لعطية محمد سالم، عالم الكتب، بيروت.
٨. إعراب القرآن، لأبي جعفر أحمد بن محمد النحاس، تحقيق: د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب – دار النهضة العربية، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
٩. إلى القرآن الكريم، لمحمود شلتوت، دار الشروق، ١٤٠٣هـ.

١٠.أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، لأبي بكر جابر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.
١١.بدائع الفوائد، لأبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية، تحقيق: علي العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مطبوعات مجمع الفقه الإسلامي، جدة.
١٢. البرهان في تناسب سور القرآن، لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير، تحقيق: د. سعيد الفلاح، دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، ١٤٢٨هـ.
١٣. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق: محمد علي النجار، القاهرة.
١٤. البيان في عد آي القرآن، لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني، تحقيق: د. غانم قدوري الحمد، منشورات مركز المخطوطات والتراث الإسلامي، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ ــ ١٩٩٤م.
١٥. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، مؤسسة التاريخ، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
١٦. التسهيل لعلوم التنزيل، لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، تحقيق: محمد عبد المنعم اليونسي، إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب الحديثة.
١٧. تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تحقيق: د. حكمت بشير ياسين، دار ابن الجوزي، الدمام، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ.
١٨. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبد الله

ابن محمد بن عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة.
١٩. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.
٢٠. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، طبع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢١. الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، تصحيح: أحمد عبد العليم البردوني، أعاد طبعه دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ.
٢٢. جمال القراء وكمال الإقراء، لعلي بن محمد السخاوي، تحقيق: د. علي حسن البواب، مكتبة التراث، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ.
٢٣. حرز الأماني ووجه التهاني (الشاطبية)، القاسم بن فيره بن خلف الشاطبي، ضبطه وصححه وراجعه: محمد تميم الزعبي، مكتبة دار الهدى، المدينة المنورة، الطبعة الرابعة، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.
٢٤. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لأبي الفضل شهاب الدين محمود الألوسي، تحقيق: محمد الأحمد وآخر، دار أحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ.
٢٥. السراج المنير، لشمس الدين محمد بن أحمد الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٦. السماء في القرآن الكريم، د. زغلول النجار، دار المعرفة، الطبعة

الأولى، ١٤٢٥هـ.

٢٧. سنن أبي داوود، لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٨. سنن الترمذي، لأبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٢٩. السنن الكبرى، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٣٠. شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، سعيد بن علي بن وهف القحطاني.

٣١. شرح العقيدة الواسطية، لمحمد بن صالح بن عثيمين.

٣٢. صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، محمد بن حبان التميمي البستي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣م.

٣٣. صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

٣٤. صحيح الترغيب والترهيب، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الخامسة.

٣٥. صحيح الجامع الصغير وزيادته، لمحمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

٣٦. صحيح سنن أبي داود، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ -١٩٩٨م.

٣٧. صحيح سنن الترمذي، لمحمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م.
٣٨. صحيح مسلم، لأبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٩. صفات الله عز وجل الواردة في الكتاب والسنة، علوي بن عبد القادر السَّقَّاف، الطبعة الثانية، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م.
٤٠. الضوء المنير على التفسير (من كتب الإمام ابن القيم)، جمعه: علي الحمد المحمد الصالحي، الناشر: مؤسسة النور للطباعة والتجليد بالتعاون مع مكتبة دار السلام، الرياض.
٤١. غرائب القرآن ورغائب الفرقان، لنظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري، تحقيق: زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
٤٢. فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق حسن خان القِنَّوجي، عني بطبعه وقدّم له وراجعه: عبد الله بن إبراهيم الأنصَاري، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م.
٤٣. فتح القدير، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة، دار الوفاء، المنصورة، الطبعة الثانية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.
٤٤. فضائل القرآن وما أنزل من القرآن بمكة وما أنزل بالمدينة، لأبي عبد الله محمد بن أيوب بن الضُّريس، تحقيق: غزوة بدير، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٨م.
٤٥. فضائل القرآن، لأبي العباس جعفر بن محمد المستغفري، تحقيق وتخريج: د. محمد فارس السلوم، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م.

٤٦. الفوائد الجميلة على الآيات الجليلة، لأبي علي الحسين الرجراجي الشوشاوي، دراسة وتحقيق: إدريس عزوزي، مطبعة فضالة، المغرب.
٤٧. في ظلال القرآن لسيد قطب، دار العلم، جدة.
٤٨. الكشاف عن حقائق غوامض التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، ضبط: محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.
٤٩. لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.
٥٠. مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، لعلي بن أبي بكر البيهقي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٤٠٧ هـ، وطبعة دار الفكر، بتحقيق: عبد الله محمد الدرويش، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.
٥١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن عطية، تحقيق عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.
٥٢. المختصر في التفسير، إصدار مركز تفسير للدراسات القرآنية، طبع مؤسسة الشيخ عبدالله بن زيد بن غنيم الخيرية.
٥٣. مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع، لجلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تحقيق: د. محمد بن عمر بازمول، المكتبة المكية، مكة، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
٥٤. المستدرك على الصحيحين، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م.

٥٥. المسند، لأبي عبد الله أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر، ١٩٨٥م.
٥٦. مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، قدم له وحققه وعلق عليه وخرج أحاديثه: د. عبد السميع حسنين، مكتبة المعارف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.
٥٧. المصنف، لأبي بكر عبد الرزاق بن همام الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.
٥٨. معاني القرآن وإعرابه، لأبي إسحاق إبراهيم بن السري الزجاج، تحقيق: د. عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، ببيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ
٥٩. المعجم الأوسط، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ.
٦٠. المعجم الكبير، لأبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني،، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة الزهراء - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤ هـ.
٦١. مفاتيح الغيب، لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ.
٦٢. من الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، د. حسن أبو العنين، مكتبة العبيكان، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.
٦٣. المنتخب من مسند عبد بن حميد، أبو محمد عبد بن حميد، تحقيق:

صبحي السامرائي وآخر، مكتبة السنة، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ.
٦٤. موسوعة الإعجاز العلمي، ليوسف الحاج أحمد،مكتبة ابن حجر، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ.
٦٥. موطأ الإمام مالك بن أنس، تصحيح وتخريج: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٦ه، ١٩٨٥م.
٦٦. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، لبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي، طبع دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، ١٣٩٦ه.

* * *